خاصة
الدكتور/ عبد الناصر حسيب

لسان الدعوة

بين

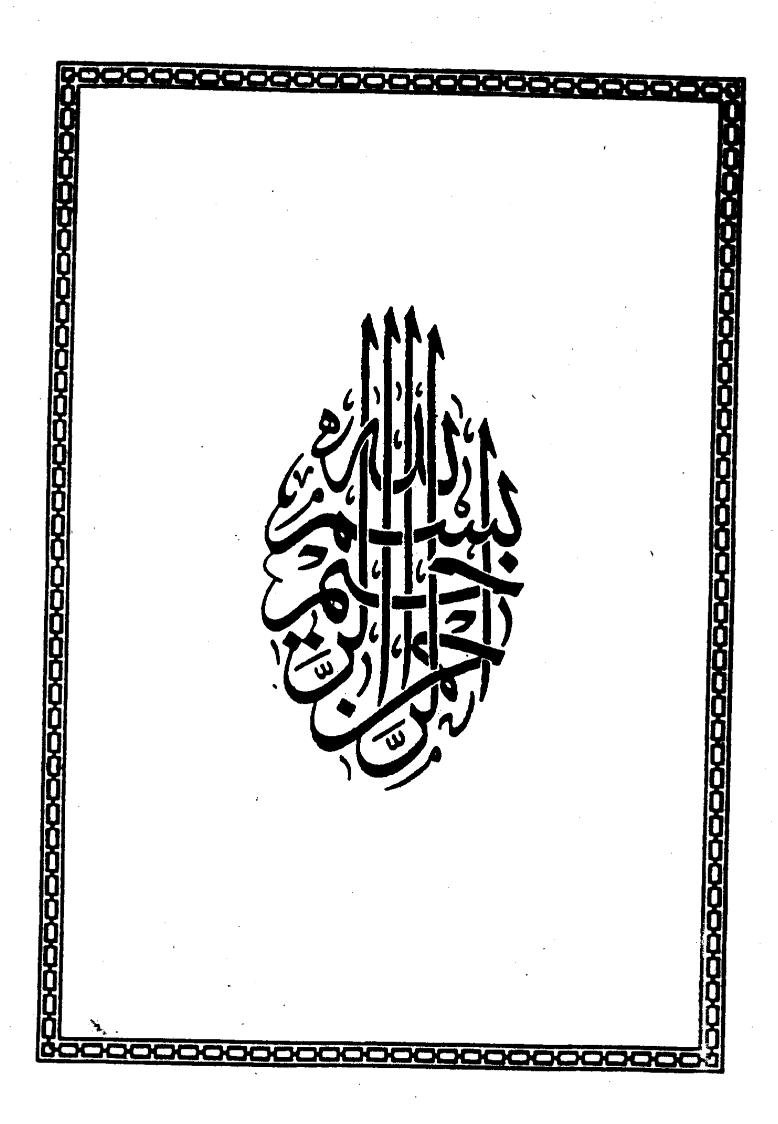
الإعداد والإنطلاق

للدكتور / عبد الناصر احمد حسيب صالح

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

الطبعة الثانية

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



افتتاحية

" رب اغمسنى فى بحر من نور هيبتك ، حتى أخرج منه وفى وجهى شعاعات هيبة ، تخطف أبصار الحاسدين من الجن والانس ، فتعميهم عن رمى سهام الحسد فى قرطاس نعمتى ، واحجبنى عنهم بحجاب النور الذى باطنه النور وظاهره النار .

أسألك باسمك النور أن تحجبنى فى نور اسمك بنور اسمك حجابا يمنعنى من كل نقص يمازج منى جوهراً أو عرضا إنك نور الكل ومنور الكل بنورك "

آمين .

* المقدمة *

الحمد لله الذى مزق بنور الإسلام حجب وكثافات غياهب الجهل والاظلام ، واختار لهذه المهمة على مر الزمان من خلقه صفوة الانام ، فأوحى به إلى أنبيائه ورسله الكرام ، عليهم جميعاً أزكى صلاة وسلام حتى كان بسيدنا محمد - ﷺ - مسك الختام ، فحقق الله به غاية المرام بظهوره وبعثته للقضاء على كل مظاهر الظلم والاظلام ، فأكمل الله به الدين ، وأسدى على الاحياء نعمة التمام إذ كان لسان الحق الصادع بالحقيقة فى دنيا اللّئام ، المفعمة بأرجاس الشيطان من الخمر والميسر والانساب والازلام ، والافتراء على الله كذبا بتحريمهم السائبة والوصيلة ، فحرموا الحلال وأحلوا الحرام .

وكم لاقى - ﷺ - ابان انطلاقة البيان بالدعوة إلى الملك العلام والايمان بالآيات والاحكام ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله ، وما ضعف وما استكان إلى واحد من قومه ذوى الآثام ، وعلم أصحابه الجلد والثبات والصبر فى الإيمان بالله وحده لا شريك له فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأعظم جيل جاد به الاسلام ، كما شهدت بذلك صفحات الأيام . فصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين وعامتهم إلى يوم تزول الأقدام وينفخ فى الصور فيخرج الناس جميعاً من الإجداث مسرعين إلى الله - تعالى - بالأقدام .... وبعد

فهذه دراسة وجيزة فى علم الخطابة أقدمها زلفى بين يدى الله – عز وجل – مبتغياً لديه حسن المثوبة فى الدنيا ، والمآب فى الآخرة ، وقد كتبت هذه الصفحات القليلة – فى عجالة سريعة – أنا فى أغلبها كل على أفاضل سبقونى فى هذا المجال – خصيصاً لطلاب كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا راعيت فيها معالجة مشكلات الاعداد التى تواجه الجيل الجديد من شباب الدعوة الإسلامية وكذا مشكلات الواقع العملى المعاصر للتى تصيبنا بوصمة شديدة يندى لها الجبين لما تراه من ترد سافر فى كثيرين ممن وكل اليهم أمر قيادة الأمة إلى الله ، أحياناً بالهروب والتنصل ، وأخرى بالرضوخ للواقع من أجل لقمة العيش الميرى ، واتخاذ الدعوة كمهنة ووظيفة لا كرسالة وأمانة .

كما تحدثت عن تاريخ الخطابة وعصور ازدهارها ، وأسباب ازدهارها ، مضمنا حديثى التركيز الشديد على الخطابة فى العصر النبوى وأبرز قسماتها وسماتها مع ذكر بعض النماذج من خطب النبى – ﷺ – ، ثم تابعتها بالكلام على الخطابة فى عصر الخلفاء الراشدين ، وكذا عصر بنى أمية ، والعصر العباسى مبينا ركائز ارتقاء الخطابة أو انحطاطها فى كل عصر من هذه العصور ، وبيان أقسامها . ثم تحدثت عن الخطبة الدينية وأحكامها وتاريخها ، وغضضت الطرف عن غيرها من أنواع الخطابة الأخرى كالخطابة السياسية والقضائية والمحفلية وغيرها

من الأنواع الأخرى .

ثم بينت المنابع الأصلية للخطبة الدينية بابراز مصادرها الرئيسية ومؤكداً على ضرورة البعد الكامل عن الاسرائيليات مبيناً خطرها على الدعوة إلى الله عز وجل .

ثم تحدثت عن حاجة الدعوة إلى ألسنة جديدة ذات طاقات خلاقة جديدة تواكب عصر التليفزيون والفيديو ، وتناهض لغته ووسائله الشيطانية - أو كما يسمونها الابداعية الادبية .

ثم بينت ما بين الخطابة والدعوة إلى الله من روابط وأواصر وعلاقة كليهما بالأخرى مؤكداً على إظهار البواعث الذاتية التى يمكن أن تجعل من الخطيب داعية أو بمعنى أدق تصنع . ثم ركزت على بيان مسقطات الخيب الداعية منبها اياه عليها لخطورتها واضعاً اياه صوب المسئولية الذاتية ابان الحديث عن كل واحدة منها، إلى آخر ما تناولته من مقومات اعداد الخطيب وغيرها .

وهكذا جاءت هذه الدراسة على هذا النحو المتعجل فى ثوبها القشيف ولولا ضيق المقام وعجلة الاخوان لكنت أسعد حظا باستخراج ما فى خزانتى مما يمنَ الله تعالى به علينا من الفضل ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه .

فلتقبلوا منا هذه العجالة ، وأملنا غاية الانتفاع والانفاع بها والله من

وراء القصد هو حسبنا وملاذنا ، وغاية مبتغانا ومعتمدنا .

والحمد لله أولاً وآخراً .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

فى ١ / رجب ١٤٢٥ هـ

الموافق ٣٠ / ديسمبر ١٩٩٤ م الموافق ١٧ / ٨ / ٢٠٠٤ .

أ . د / عبد الناصر أحمد حسيب صالح .

الفصل الأول

بين يدى الخطابة

تمهيد:

كثر فى أيامنا هذه تخاذل غالبية من يجهزون علمياً من حملة الاجازة العالية من كليات أصول الدين - على وجه الخصوص - وكليات التخصصات النظرية الأخرى القريبة من دراسات ذوى التخصص الدقيق وشبه الدقيق فى جامعة الأزهر على وجه العموم - وان كنت ممن لا يشجعون وجود غير المتخصصين فى هذا المجال بالذات - مراعاة للمسئولية وأمانة الكلمة - فى توجيه دعوة الخير إلى الغير ، ولم يخلص من بين الأعداد الكثيرة من الخريجين إلا عدد ضئيل جداً لا يمكن أن يسد حاجة المنابر بالمساجد لكثرة عددها ، فكيف والحال هذه يمكن سد ثغور الدعوة إلى الله ، ومجالاتها ليست فى دَوْر المنابر بالمساجد فحسب ؟ .

إننا اذا نحتاج إلى جند كثير ، نحتاج إلى جيش من الدعاة كما نحتاج إلى جيش من الخطباء المتخصصين ، لأن الأمة فى كل بقعة من بقاعها لا تستغنى بحال عن متخصص جيد ، يقدم كلمة الله - تعالى - اليها ، ويبصرها فى دينها مع ادراكه - حقيقة - لقيمة هذه الكلمة وفقهها ومراده منها ، بصير بكل ما يلم بها وما يلزم لها ، كما أنها - أيضاً لا تستغنى بحال عمن يحمل عنها أمانة الدعوة إلى الله تعالى ويوصل صوتها إلى غير

الموحدين فى كل بقاع الدنيا وهؤلاء هم الدعاة المتخصصون الفاقهون للدعوة وآدابها وأخلاقها وفنونها .

• إذا فنحن بحاجة إلى داعية خطيب ، وخطيب داعية ، وكليهما لسان للدعوة .

ولكن لما لم يوجد المتخصص الجيد ، نظراً لهروب الكثرة منهم أو محاولات الهرب بالتسرب إلى مجالات أخرى - كالتدريس أو الوظائف المكتبية أو الإدارية ، أو التجارية - وغيرها ، فلما هرب من الساحة - أو سعى إلى الهرب - أصحاب الحق فى الكلمة بالدرجة الأولى ، وتنصلوا - ولا يزالون - من أداء أمانة الدعوة التى تحملوها طفت على الساحة ألسنة لم يتخصص أصحابها ، ولم يتعلموا فنية الأداء ولا أصول هذا العلم - ألسنة غير مسئولة - تتحدث باسم الدعوة إلى الإسلام فكان ضرها أكثر من نفعها ، ولكن ربما كان لها عذرها ربما لا عذر لها بل وربما بها فى هذا المجال - والله أعلم النوايا - بقصد المناداة أو الترويج لفكر معين يرتجى من ورائه غاية درجة الله تعالى ومصلحة المسلمين ، بل تدعو إلى بث الفرقة وتفتيت الوحدة ، وزرع روح الخلاف وتشتيت الفكر ، لا لأن القضية التى يتناولها باطلة أو ليست مما يدعى إليه ، ولكن لأن المتناول لها ليس بمتخصص فى هذا الفن ، ولا دراية له بفقه الدعوة ، ولا أسلوب عرضها ، ولا ماذا يقال ، ومتى يقال ، وفى أى شيئ يقال ، وعلى من يقال ؟ .

وما هذا إلا لتخاذل أعداد من المتخصصين - هذا من جانب - وهروب بعضهم من جانب آخر ، وندوة عدد المتخصصين على الساحة من جانب ثالث وهو ما جعل الفرصة سانحة لأن نرى ما نراه على الساحة الآن من تقمص الكثيرين لدور الدعاة ، والتحدث بلسانهم ، وهم فى حقيقة الأمر عبء على الدعوة لأنهم ليسوا أصحاب مسئولية ، أو كلمة مسئولة حتى وإن سمحت لهم الفرصة - فى ظل تقليص دور المتخصصين لأنفسهم ، أو تقليص غيرهم لهم - أن يحتلوا مكانهم ، لا بسببَ خطأ أو تقصير فى إعداد الخطباء المتخصصين ، ولكن لأسباب - هى بالأخرى - بعيدة تماماً عن جانب التخصص والإعداد العلمى ، والأغلب أنها ربماكانت بسبب التفريط فى الإعداد العملى ، والتجهيز النفسى ، فالخطيب فى هذا الجانب كالطبيب ، كلاهما لا غنى له عن التجربة - بل التجارب - العملية التطبيقية لما تناوله من الدراسات النظرية ، وذلك - فى نظرى - هو السبيل لصنع كموارد جديدة تُبنى فكريا على المنهج العلمى الصحيح ، وتُجهز لحمل مسئولية التوجيه وأمانتها .

ونحن فى دراستنا هذه - إن شاء الله تعالى - سنحاول جاهدين استظهار وسائل وأصول وإعداد الخطيب الداعية علميا وعمليا والله المستعان وهو من وراء القصد نعم المولى ونعم النصير .

التعريف اللغوي للخطابة :

الخطابة فى لغة العرب مصدر مشتق من " الخطاب " وهو توجيه الكلام نحو الغير بقصد الإفهام ، والهاء فيه للمبالغة ، وهى من الفعل " خطبُ " يخطب"" بضم "" الطاء "" بخلاف ما إذا كانت بالكسر فهى التقدمة بالتعبير عن الرغبة فى فتاة أو أنثى بعينها .

التعريف الإصطلاحى للخطابة :

أما عن تعريفها فى اصطلاح العلماء ، فلقد عرفت الخطابة بتعريفات عدة اختلفت باختلاف مشارب واتجاهات المعرفين حسب اختصاصاتهم العلمية ، من واقع نظرتهم لما بين الخطابة وبين ما تخصصوا فيه من روابط ، وكذا من خلال نظرتهم إلى الخطابة ذاتها من حيث كونها علما أم فنا أم هما معا .

ومن ثم نقول :

"" عرفت الخطابة بتعريفات كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض ، وإن كان من بينها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطابة – على عمومها – ولا شاملاً لجزئياتها ، كما أن منها ما ليس مانعاً من دخول أشياء معها كالدروس لتوجيهات ، والوصايا والإعلانات ، والإرشادات والمناقشات ، وغيرها .

وإليك جملة من التعريفات الإصطلاحية أذكرها فيما يلى :

١) يقول أرسطو : "" الخطابة هى القدرة على النظر فى كل ما يوصل

إلى الإقناع فى أى مسألة من المسائل .

٢) ويقول ابن سينا : "" لقد أدخل الحكماء - أى الفلاسفة - الشعر والخطابة فى أقسام المنطق ، لأن المقصود من المنطق أن يوصل - المخاطب - بالفتح - إلى التصديق ، فإن أوقع التصديق يقيناً فهو البرهان ، وإن أوقع ظنا أو محمولاً على الصدق فهو الخطابة ، أما الشعر فلا يوقع تصديقاً ، لكنه لإفادة التخييل الجارى مجرى التصديق "" .

وقد وافقه العلامة ابن خلدون فى مقدمته حيث جعل الخطابة أحد أفراد علم المنطق وعرفها بأنها " القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم ، وما يجب أن يستعمل فى ذلك من المقدمات " .

٣) ويقول ابن رشد " إنها قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة " .

ويمكن جمع هذه التعريفات الثلاثة السابقة للفلاسفة فى تعريف واحد بأن تقول :

الخطابة عند الفلاسفة هى "" مجموع قوانين وأصول يقتدر بها على الإقناع الممكن فى أى موضوع يراد "" .

أو هى " قوانين وأصول تعرف الدارس بطرق التأثير ، ووسائل الإقناع وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغى أن يتجه إليه من المعانى فى الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة

وأساليبها ، وترتيبها " .

ومن ثم فدراسة علم الخطابة بناء على التعريف الأخير - لكونه قد جمع بين كونها علما وفنا - تنير الطريق أمام من عنده همة وقدرة وعزم شديد على الترقى بالفطرة وتنميتها وتساعد من استطاع الأخذ بها والسير فى طريقها على تربية ، وإنماء استعداد اداته ومعالجة ما به من عيوب ، وارشاده إلى طريق إصلاح نفسه ، ليسير على الدرب ، ويسلك الصراط المستقيم .

وفى مجمل تعريف الفلاسفة أمور لا غنى من التنبيه عليها :

أ - الإقناع : وهو حمل السامع - المخاطب - على التسليم بصحة القول وصواب الفعل أو الترك .

والإقناع : ينقسم من حيث مسلكه إلى نوعين :-

أحدهما : برهانى : والهدف منه اذعان العقل - المخاطب - بالفتح - إلى نتيجة مبنية على مقدمات ثبت باليقين لديه صحتها - أى مقدمات مسلمة - .

والثانى : خطابى : والهدف منه إذعان العقل المخاطب " بالفتح " بصحة المقول وإثبات صواب الفعل أو الترك ، وذلك بأقيسة مؤلفة من أقوال مظنونة أخذ فيها بالمحتمل الراجح ، أو مقبولة صدرت ممن يعتقد صدقه وسداد رأيه ، ومن ثم فهو قائم النظر والتدبر والتأمل وإعمال الفكر وإشغال العقل .

ب – قولنا – : " الممكن " بفتح الميم الثانية وتضعيف ما بعدها مكسوراً لأن الهدف من الخطابة وغاية أمرها ، وعظيم شأنها إنما يكمن فى إعداد النفوس لقوة الإقناع ، بصرف النظر عن تحقيق الغاية منها بالوصول إلى المراد من عدمه كما هو الحال فى سائر العلوم والصناعات ، فإنها تعد النفس لعمل خاص ، باكسابها قوانين وأصول معينة ، وإن لم تبلغ الغاية منها أحياناً كالطب – على سبيل المثال – فإن قوانينه وأصوله ترشد النفس وتعدها لمعالجة الأمراض بهدف إحداث الشفاء ، لكن قد لا يحدث الشفاء لمانع ما .

لذا فمهمتنا فى هذه المرحلة كمعلمين لهذا العلم – إكساب طالب العلم القواعد والأصول الخاصة بعلم الخطابة ، والتى تمكنه مستقبلاً – حال تحمله للمسئولية – وقيامه بما تخصص من أجله – كلسان للدعوة إلى الله – عز وجل – من السير على خطى راسخة ، وقواعد علمية ثابتة ، وإن تأخرت النتيجة المرجوة من دعوته فى الناس لشيئ ما فى الناس المهم ألا يخطئ هو الطريق تبعاً لخطأ الناس ، إذ من أعظم الخطر أن يصير المريض هو الطبيب .

حـ – وقولنا [فى أى موضوع يراد] نظراً لأن الخطابة لا تختص بمجال دون مجال ، أو بشيئ معين فحسب ، بل هى تتناول كل شيئ فى الحياة سواء ما يتعلق بخصائص الإنسان أو ما يتعداه إلى غيره ، فهى إذا

شمولية الموضوع بخلاف غيرها من العلوم أو الصناعات الأخرى ، فمثلاً اللغة تنظر فى ضبط الكلمات وأصولها والطب ينظر إلى جسم الإنسان والحيوان من جهة الصحة والمرض ولهذا فطن الأقدمون إلى هذا - وهو إن دل على شيئ فإنما يدل على خطورة الخطابة وأهميتها - فيقول ابن رشد نقلا عن أرسطو " إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ، لأنها تتناول كل العلوم والفنون ولا شيئ قط حقيراً كان أم جليلاً معقولاً كان أو محسوساً إلا ويدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطانها " .

ومن أجل هذا قال بعض الباحثين فى شأنها : " يلزم أن يكون الخطيب ملما بكل العلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائبا إلى أن يزداد كل يوم علما " .

أو لم يكن هذا هو دعاء لسان الدعوة الأول - سيدنا - محمد - ﷺ - امتثالاً لما أمره الله - عز وجل - به فى قوله تعالى [وقل رب زدنى علماً] ؟!

وعلى هذا فالخطيب الذى يمكن أن يكون بحق لسانا للدعوة إلى الله - ما التزم بأصول الخطابة وقوانينها - هو الرجل الموسوعة الدءوب الجاد ، كثير المطالعة ، سريع البديهة ، حاضر العصر ، متوقد الذهن ، حاذق الفكر سديد الرأى ، قوى الحجة ، مكين الدراية متين اللغة ، ظاهر الفطنة .

أو لست معى من البداية فى أنها مهمة تحتاج إلى رجال ، خصوصاً إذا ما فقهنا - خلافاً لما هى عليه فى واقع الأمر الآن - إنها رسالة وشرف لا

وظيفة وترف ؟ إنها مهمة الأنبياء قبل ، فأين ورثتهم ؟؟ .

وخلاصة القول فى تعريفات الفلاسفة :

أنهم اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام ، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب فى أى غرض من الأغراض الكلامية ، وأنه يعنى بدراسة طرق التأثير ووسائل الإقناع ، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب وإلمام بميول السامعين وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة وترتيب أجزائها ، ومن ثم فهذا العلم بما يضمه من قواعد وأصول هو نور يهتدى به كل من لديه استعداد للخطابة ليربى ملكته وينمى استعداده وموهبته .

تعريف الخطابة فى اصطلاح الأدباء :-

عرف الأدباء الخطابة بأنها "" اسم للكلام المنثور سجعا كان أو مرسلاً ""

وقالوا أيضاً : "" هى القاء الكلام المنثور مسجوعا كان أو مرسلا لاستمالة المخاطبين إلى رأى أو ترغيبهم فى عمل "" .

تعريف الخطابة فى اصطلاح المناطقة :

أما عند المناطقة فقد عرفوها بأنها " قياس مؤلف من مقدمات مقبولة لصدورها مما يعتقد فيه ، لاختصاصه بمزيد عقل ، أو تدين " .

والفرق بين تعريف الفلاسفة ، وتعريف المناطقة ، فمن خلالهما يمكن أن تدرك ونعلم أن المناطقة قد نظروا إلى الخطابة من حيث تأليفها ، وأما

الفلاسفة فقد نظروا إليها من حيث ملكتها وتحصيلها .

وأما الأباء فإنهم قد نظروا إليها من حيث أسلوب أدائها .

تعريف الخطابة فى اصطلاح المحدثين :

وكما اختلف السابقون فى تعريفهم للخطابة كذلك اختلف المحدثون من أساتذتنا وعلمائنا فى تعريفهم لها ، وإن كادت للتقارب وتتلاقى على قدر مشترك يجمعها .

وفيما يلى عرض لبعض هذه التعريفات :

١) أنها " فن مخاطبة الجماهير بطريقة القائية ، تشتمل على الاقناع والاستمالة . "" وهو تعريف الدكتور / عبد الجليل شلبى الذى ارتضاه ومال اليه .

٢) أنها " فن مشافهة الجمهور واقناعه واسمالته " وهو التعريف الذى قاله الدكتور / أحمد الحوفى .

٣) أنها " علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول المختلفة لمحاولة التأثير فى نفوسهم وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم واقناعهم : وهو تعريف الدكتور أحمد غلوش لها .

٤) ويمكن لنا أن تعرفها بأنها : " العلم الذى يقتدر به على اعداد من يستطيع بتطبيق قواعده وأصوله توجيه الكلام المؤلف من مقدمات مقبولة يهدف من خلالها إستمالة المخاطبين واقناعهم ، لصدورها ممن يعتقد فيه

صحة الدين ورجاحة العقل وسلامة الفكر للربط بين المقدمات ونتائجها فى شتى ميادين الحياة وامكانية توظيفها " .

وهذا التعريف وإن كان طويلاً إلا أنه يمتاز بجمعه بين كون الخطابة علما للدراسة والاعداد ، وكونها فنا يبرزه جانب الأداء ، وذلك لأن الخطابة ليست علماً فحسب ولا فناً فحسب ، كما أنه يمتاز بشموليته لكل التعريفات السابقة : .

وبالتنبيه فى إيجاز على شمولية مجالاتها ، وامكانية توظيف هذه المجالات لها ، ونقصد به أن يعيش الخطيب عصره ، وأن يعيش مع الناس عصرهم فيعرف من أين ينطلق وإلام ينتهى .

أوليات الإعداد :

تقوم بدائيات الاعداد والتجهيز لخطيب المستقبل وداعية الغد على ركائز أربعة ، لا يمكن تغافلها أو تجاهلها بحال من الأحوال .

بل لا بد من مراعاتها ، والعمل على توفيرها وإكسابها لمن يراد به سلوك هذا المجال ، وتوجيهه إليها ، وحتى يتسنى هذا فان على المعلم - المدرب أن يراعى ما يلى

أولاً : العمل على بث روح الإستعداد :-

وذلك بأن تعمل على بث الإستعداد فى المتدرب والتنقيب عن درجات خلق روح الإستعداد الذاتى لدى من يتلقى على يديه :- استعداد من يرتجى صناعتهم فإذا ما تم خلق هذه الذاتية المستعدة استعداد من يرتجى . بداية ، بالإحساس والشعور بالمسئولية بدأت مرحلة جديدة أرقى ، وهى :-

الدفع بهذه الذاتية المستعدة إلى الامام بالوقوف بها على معرفة أصول علم الخطابة وقوانينه التى وضعها الحكماء فى ثوب من الدراسة النظرية ، وذلك من أجل أن يتعرف المراد إعداده على الضوابط التى ترتقى به إلى غايات ما يناط من مهام وصلاحيته للتكليف بممارسة هذه المسئولية ، وقدرته على القيام بها فى إجادة وروعة تعصمه من تملق الآخرين له ، أو رغبة المتستمعين عنه ، فالأصول والقوانين إذا التى وضعها العلماء والمتخصصون لهذا العلم ، هى الحكم الذى على أساسه يمكن للخطيب أن يحدد منهجه ، ويعرف ضوابطه التى تقيم صلبه ، وتنذره عند مقاربة الذلل أو الوقوع فيه وهن من ثم تدفع به إلى خوض غمار هذا المجال دون ما خوف أو فزع لأنه إنما تسير خطاه على ثوابت علمية ، وقواعد فكرية .

ثانياً: التعرف على الأساليب الخطابية عند أبرز الخطباء ومواطن التأثير عندهم .

ثم تعقب هذه المرحلة العلمية - النظرية - أو أثناءها - توجهات علمية مصاحبة من جانب المتعلم - المراد اعداده - سواء فى صورة سماعية - لأن القائل كالحالب والسامع كالشارب - وما تسمعه الأذن يسهل أن يحكيه أو يحاكيه اللسان - ولا شك أن الطالب النابه يتأثر بأستاذه ومعلمه ويصير منه كالظل الظليل فيتقلده ويحاكيه ويتمثل أسلوبه ومنهاجه - هذا من جانب -

ويتمثل أسلوبه ومنهاجه – هذا من جانب –

ومن جانب آخر – فإنه لا بد من توجيه الطالب إلى كثرة الاطلاع وقراءة أساليب العلماء والفصحاء والبلغاء ، وأرباب البيان والخطابة ، وكذا إعداد البحوث التى تتعلق بالخطابة والخطباء ، ودراسة بعض الخطب بالتعرف على مناحى التأثير ، ومواطن الإقناع فيها ، ووسائل الإستمالة ، وذلك بالتذوق لما فى هذه الخطب المدروسة منه تحسس حانة الأسلوب ، وحسن العبارة ، ودقة الكلمة ، ومرونتها ، وجودة التفكير المعتمد أساساً على فقه الكلمة ويقظة الخطيب وسرعة بديهته وروعة ملاحظته .

ومن الأجدر والأفضل أن يعتمد فى هذا الجانب – نظراً لظروف مدة الدراسة الجامعية وقصرها – ومراعاتها للناحية الأكاديمية فحسب – أن يرتبط الجانب الذى نحن بصدد الحديث عنه – بالتدريب العملى المباشر وذلك مع وضع الحافز الشخصى فى الإعتبار للمجيد – ومحاولة إزالة الحاجز النفسى لدى الطالب – بدفعه إلى الحديث أمام زملائه وتشجيعه وإمهاله مع ضرورة أن يصحب ذلك كله الأمرين السابقين وذلك :

ثالثاً : ذرع الثقة بالنفس :–

بإيقاظ الفطرة التى خلقها الله – عز وجل – فى الإنسان وهى قدرته على البيان والإيضاح والإفصاح عما يجيش فى صدره وبيان أن هذه ميزة اختص الله – عز وجل – بها الانسان – كل إنسان – وفضله بها على سائر

المخلوقات والكائنات ، وأن الإنسان هو الذى يصنع العِىّ لنفسه بنفسه ، كما أنه هو الذى يصنع لنفسه بنفسه - أيضاً - حسن التعبير وزلاقة اللسان ، لو أنه وجه نعم الله المودعة فيه وجهتها الصحيحة ، لتؤدى مهامها التى خلقت لأجلها .

فصار ذا عين يبصر بها ، وذا أذن يسمع بها ، وذا قلب يفقه به ، وذا عقل يدرك به ويعى ، بمعنى أن يحس الإنسان بقيمته كإنسان كرمه الله - عز وجل - وفضله .

فالبيان اذن ليس كما يدعى البعض موهبة اختص الله بها إنساناً دون إنسان ، وإنما هو نعمة أنعم الله بها على كل إنسان ، وأمّا الموهبة فيصنعها الإنسان لنفسه بنفسه إذا هو أصقل هذه النعمة ، ونمى روافدها ، فإذا ما كان ثمة خور فى انسانٍ مّا فى هذا الجانب ، فليس من حقه أن يرمى الفطرة بتلك الخيمة التى ضربها على نفسه ثم تقوقع بداخلها ، وإنما عليه أن يعود إلى نفسه ويتدبر قول الله تعالى : [الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان] .

وهكذا بان لنا أن الله - عز وجل - قد فطر الانسان مؤهلاً ومعداً الاكتساب اللغة من الآخرين ، وأقدره على فهم مراداتهم من تطابهم إياه أو محاورتهم له وتوجيههم نحوه لتكوين ذاتيته على نمط معين من المعارف والسلوك . وكذا إقداره هو ذاته - المخاطب - على إشعار الآخرين بالتعبير

لهم وافهامهم مراده منهم عن طريق الخطاب ، كما عرفه من الوسائل النفسية ما به يستميلهم إليه ، فيه ، أو بما يريد ، وذلك عن طريق نعمة البيان – أو الإفصاح – عما انفعلت – أو تنفعل له نفسه من أمور وأحداث .

وعلى ذلك فإن أى إنسان يملك نعمة البيان ، يمكن أن يكون – بالفطرة – خطيباً على النحو الذى ذكرناه – أو – الرؤية التى ارتأيناها ، لو أنه كإنسان انتقل من مرحلة الطفولة الفكرية وكذا الطفولة البيانية – بدائيات البيان – إلى مرحلة الإستعداد والعمل على صقل الموهبة وتنميتها باكتساب العلوم والمعارف التى – إن صادفت حسا سليماً وعقلاً صحيحاً – تدفع مكتسبها إلى الإنفعال بها ولها ، وذلك حتى يتسنى له تحقيق انفعال الغير لقضايا هذه العلوم والمعارف ، والتى يرغب فى استمالة لها ، والإقناع بها .

ومن ثم فالخطيب بحاجة إلى الإيمان الكامل – أولاً – بالقضية التى يتناولها قبل أن يحادث بها الآخرين ، ما إن أراد أن يؤثر فيهم ، فمن لا يزرع الشجر لا ولن يجنى الثمر .

اذن فالخطابة ليست وهبا – فحسب – حتى لا يتعلل المتعللون – وليست كسبا – فحسب – أيضا – لأن دراسة علم الخطابة ومعرفة قواعدها وأصولها – وحدها – لا تصنع خطيباً ، وهو ما سنوضحه لك فيما يلى :

رابعاً تعريفه بأهمية دراسة علم الخطابة :-

ليس معنى ما سبق أننى أضع من أهمية دراسة علم الخطابة ومعرفة

أصولها أو أحط من قدرها أو شأنها ، وإنما قصدت التنبيه إلى ما هو أهم من هذا وهو التنبيه على ما يراد من دراسة علم الخطابة أو بمعنى أدق بغية مدرسية من دراسيه ، وهو ما يعنى أنى أهدف هنا إلى الغاية من دراسة هذه القوانين والقواعد التى هى للخطيب كالعواصم من القواصم ، لأن من لا يدرس هذا العلم دراسة واعية لا يمكن أن يكون خيباً وان بدا فى الناس متحدثاً .

فإن [هذا العلم ينير الطريق ، أمام من عنده استعداد للخطابة ويربى ملكاته وينمى استعداداته ، ويرشده إلى علاج ما به من عيوب ، ويدله على طريق إصلاح نفسه .

وذلك لأنه يعنى بدراسة طرق التأثير ، والتعريف بوسائل الإقناع وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغى أن يتجه إليه من المعانى فى الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة وأساليبها وترتيبها .

ومن ثم فإنه مما يجدر التنبيه عليه :

[ان هذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ، لأنه يرشد دراسه إلى مناهج ومسالك ، ولا يحمله أو - يضطره - على السير فيها ، هو يعطيه المصباح ، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان فى عينيه وان أرسطو واضع كتاب الخطابة - الاول - لم يكن خطيبا] .

وقد يتساءل أحدنا إذا كان علم الخطابة لا يضمن لكل من يدرسه أن يصير خطيباً فلماذا ندرسه أو ندرّسه – بالتضعيف – إذا ؟ .

نقول :

ان علم الخطابة ليس بدعا فى دراسته ، أو فى اخفاق قله من دراسيه فى تحقيق الغاية من تدريسه لهم ، فعلم النحو لا يضمن لمتعلمه أن يلتزم النطق بالفصحى ، ما لم يمرس نفسه عليها مضبوطاً بقواعده وعلم المنطق – الذى هو قانون الفكر – وعاصم الذهن ، لا يضمن للعالم به عصمة الذهن ما لم يروض نفسه عليه رياضة كاملة وعلم الاخلاق والسلوك لا يضمن لعارفه أو لدارسه سلوكا قويماً ما لم يروض نفسه على قواعده وأحكامه ، وعلم العروض لا يكوّن شاعراً ، وإنما يحكم به على جودة الشاعر فى شعره من عدمها فهو القواعد الموسيقية التى ينظم الشاعر على درجاتها قوالبه الشعرية . وهكذا كل العلوم النظرية التى تظهر ثمرتها بالعمل ، تعطى من يريدها قانونا يساعده ، ولا يضمن له العمل إلا إذا راض نفسه على قانونها ، وحسبنا فى إبراز أهمية الخطابة ما ذكره ابن سينا " فيلسوف الإسلام " فى كتابه " الشفاء " اذ يقول :

" إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه ، والاستعداد إلى ميعاده ، وحسبها شرفا أنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم

الساسة " .

فالخطابة إذاً ذات أهمية كبرى فى حياة الأمم والشعوب والافراد والجماعات ، ومما يوضح لك ذلك أكثر وأكثر وقوفك على فضلها وعظيم منزلتها وشرفها بين العلوم ، فهى سيدة العلوم كلها لأنها لسانها المعرف بها ، وصاحبها دائماً ما يكون صاحب سيادة ومكانة مرموقة ما إن قام بواجباتها كما ينبغى .

ولما كان فضل العلوم والصناعات ، واستظهار شرفها يتبع ويتوقف على شرف غايتها فإن الخطابة ذات شأن خطير فى غايتها ، وما ذاك الا لأن غايتها " ارشاد الناس إلى الحقائق ومواجهة الاباطيل - بالتنبيه عليها - وحملهم على ما ينفعهم فى عاجلهم وآجلهم ، والخطابة معدودة من وسائل السيادة والريادة والزعامة ، وقد كانت من شروط الامارة فهى من أساسيات كمال الانسان وسبب من أسباب رفعته إلى المجد ؛ أرأيت كيف أن الخطابة شرفها جسيم وفضلها عظيم ؟

فهلا كنت واحداً من أرباب هذا المجد الشامخ فى سماء العلوم وذروه سنام الفنون ؟

[رابعاً - : تعريفه بالفوائد المتحصلة من دراسة هذا العلم -]

ان من أهم ما ينبغى إظهاره لطالب هذا العلم أن توقفه على فوائد



دراسته له ومعرفته لدقائقه وأصوله أن دراسة علم الخطابة توقف الدارس على :

" معرفة كيفية امتلاك القلوب ، واستمالة النفوس ، وتهييج المشاعر ، وإثارة العواطف الكامنة الهادئة ، نحو مراده من مستمعيه فبمعارفها تستضيئ موارد الدليل ، وتتضح مصادر الحجة لإنفاذ كل أمر جلل وجليل وإدراك كل غاية شريفة ، وبقوانينها يترشد الطالب إلى مواطن الضعف وشعب الشهو والزلل ، فيقوى على دحض حجة المُناظر وتزييف سفسطة المكابر .

كما أنها من جانب آخر تثير الحماسة فى النفوس الفاترة ، وتهدئ النفوس الثائرة ، وهى التى ترفع الحق وتخفض الباطل ، وتقيم العدل وتدفع المظالم ، وهى التى تهدى الضال إلى سواء السبيل ، وتفضى النزاع وتقطع الخصومات " .

ومن من شك فى أن الخطيب البارع النابه ، والعالم المتحدث الفذ هو الذى تبرز قوته ودقته ومدى استفادته من دراسة علم الخطابة بالتعبير عن ذلك بفينة الوقوف بين ذوى الإتجاهات المختلفة والأفكار المتضاربة ، والاراء المتناحرة ، فلا يزال يبين لهم النافع من الضار والصواب من الخطأ حتى يجعل الجميع فى قبضة يده ، والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استعرت بينهما نار العداوة والبغضاء فيذكرهم بعواقب فساد ذات البين والتقاطع ،

وما يجره عليهما طول أمد الخصومة ومن ثم فهو يسلك معهم سبيل التحذير والترهيب من مغبة هذا البغض وتلكم العداوة ، وما يجر عليهما بسببه من نتائج سيئة ثم يرغبهما فى الصلح وما له من فضل وثواب عند الله تعالى ، ويراعى فى ذلك كله الصبر والمثابرة – اذا المهمة صعبة والطريق إلى تحقيق المراد شاق ومليئ بالأشواك والفتن وذرائع الشيطان – فإذا ما تم ذلك لم تلبث القلوب إلا أن تصفو متآلفة والنفوس متآخية صالحة .

فماذا لو أدرك الداعية – إذا – مسئولية الكلمة التى يوجهها للناس أو أن أردت صوابا فقل يوجه الناس إليها أو بها ، ثم ماذا لو وضع اعتباره – جيداً – نوعية من يتحدث اليهم ، من حيث مستوى التعليم والثقافة والبيئة ، وتقييم الوضع الاجتماعى والنفس وأهم من هذا كله درجة الوعى الدينى أو مستوى الوعى الدينى والتربية العقدية ؟

إذا لبانت أكثر وأكثر ضرورة وقوف من يتصدى لمهمة توجيه الناس على أصول وقواعد وقوانين علم الخطابة ، ولبان لك أيضاً فائدة دراستها ، وثمرة معرفة أصولها .

ان الداعية يخاطب كل الناس ، والناس مختلفون فى دوافعهم وأهدافهم فلا بد أن يكون أعلم منهم ، يطل بثقافته الواسعة عليهم جميعاً ويلاحقهم بمعرفته بطبائع النفوس " التى يتمسك بأعرافها وتقاليدها ها إلى حد الدفاع عنها ، ومهاجمة من يحاول النيل منها .

[ومن ثم فالحكمة تقتضى مسايرة الداعية - الخطيب - لهذه الطبائع ، وملازمتها بالرفق والليل دون أن ينماع معها - وصولاً بها إلى إعلان شعائر الإسلام ، بعد أن تكون النفوس المخاطبة من قبله قد تهيأت للغراس الجديد .

وعليه عانه لا يفوتنى هنا أن أنبه من يرتجى تحقيق الثمرة فيهم ، بأنهم حتى وهم يستخدمون أساليب البيئة ليخاطبوا الناس على قدر عقولهم ومعارفهم وفى نطاق مشاكلهم وقضاياهم عملا بحديث الرسول - ﷺ - الذى يقول فيه " خاطبوا الناس على قدر عقولهم " - ألا يتناولوها حرفياً كما هى فى واقع الناس ، بل أنهم ينبغى عليهم أن يتمردوا عليها من داخلهم ويختارون منها القدر المحقق لاغراضهم وأهدافهم كدعاة إلى الله ، وبلا زيادة توحى بذوبانهم فى قيم الناس الزائفة .

ويمكن أن نستشهد على قولنا هذا بحدث من سنة رسول الله - ﷺ - وسيرته وهديه وطريقته المثلى فى الدعوة إلى الله عز وجل " وذلك عندما استعمل النبى - ﷺ - وسيلة القوم أنفسهم فى تنبيههم واعلامهم حين ناداهم من فوق جبل الصفا قائلاً " واصحباه " أو " ياصحباه " وتلك كانت صيحة القوم لحظة الخطر إلا أنه لم يتابعهم فى بقية

مـا اعـتـادوه فى مـثل هذا الظرف ، فلم يتـجـرد من ثيـابه ، كـمـا كـانوا يتجردون ، ولكنه استعمل الطريقـة فقط بالقدر اللازم ليـجمع الناس – أى بمقدار وإلى حين – وبذلك بقيت شخصيته حتى وهو يتحدث إليهم ويخطبهم ويتلطف بهم متـميـزة ، محـتفظة بخصـائصـها وأصولها بريئة من وصـمة الامـعـيـة والتـبـعـيـة والتـقليـد الاعـمـى وهـى أولى وأخطر سـقطات الداعـيـة الخطيب ، التى تدمـر دعوته وتسقط من الاذهان كلمـتـه وتبيـد من النفـوس سلطانه وبراعته ..

اذن لا بد من مـراعـاة الخطيب الداعـيـة لمقـتـضـى الحـال – أن أردنا للخطبـة عـهـداً جـديداً يمكن فـيـه لهـا من الازدهار والقـيـام بمـا هـو مـرجـو منـهـا – وكـذا مـسـايرة أسـاليب العـصـر وتسـخـيـر علومـه ومـعـارفـه لخـدمـتـهـا ونشـرهـا شـريطة أن تبـقـى أصـول الإسـلام وفـروعـه بعـيـدة عن حلبـة الصـراع وليـعلم جـيل الدعـوة الجـديد أن الناس ليـسـوا فى حـاجـة إلى وحى جـديد أو دين جـديد أو شـريعـة جـديدة ، وليـعلمـوا أيضـاً أن الجـمـاهيـر المسلمـة وغـيـر المسلمـة قـد ملت وسـئـمت من الأسـاليب القـديمة ومـا عـادت تجـدى مـعـهـم نفـعـاً ، ولا تجلب ثـمـراً ، فماذا يلزمهم إذا ؟ .

إنهم فى حاجة – فقط – إلى داعية يخاطبهم بلغة العصر الذى يعيشونه

يقرب لهم البعيد ويوضح المبهم ، ويضرب لهم الأمثال ويوظف لهم القرآن إن الدعوة بحاجة إلى عرض جديد ، ولا أقول من جديد ولا يصل الداعية الخطيب لهذا الذى يرجوه منه ، وهيهات أن يصل إلى هذا المستوى إلا إذا شمر عن ساعد الجد بيقين وصدق ، متوجهاً بكليته نحو الإيمان الصادق المانح رجاله بصيرة كاشفة تتلمس العلة وتجيد تركيب الدواء ، ليتم الشفاء ، فـ [يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السَلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم] .

الفصل الثاني:

الخلفية التاريخية للخطابه وابرز خطباء كل عصر

الخطابة عبر العصور:

إن الخطابة العربية هى التى تعنينا فى المقام الأول من هذا الحديث ، ولكن لا بكل الحديث عنها إلا بالالمام بفكرة عابرة عن الخطابة لدى الأمتين القديمتين أمة اليونان وأمة الرومان ، ذلك أن الثقافة الأدبية لهاتين الأمتين كانت هى الاساس الذى قامت عليه النهضة الحديثة فى أوربا ، وشاعت عناصرها فى ثقافات البلاد الأوربية كلها " وانبثت فى برامج جامعاتها : انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية وغيرها ، ثم قبض لها أن تترك آثاراً كبيرة فى الشرق .

أما الثقافة اليونانية فكانت ولا تزال أساس الفكر الإنسانى فى مختلف جوانبه ، وقد بلغت ذروتها فى القرن الخامس قبل الميلاد وظلت الثقافات كلها تتفرع منها بالإمتداد والتوليد والمعارضة حتى أن البحوث الذرية المستحدثة تجد لها جذوراً فى الفكر اليونانى .

وأما العهد الرومانى فكان امتداداً وتقليداً للعهد اليونانى ، والتجديد فيه قليل جداً ، وكانت اللغة اليونانية تستعمل كلغة رسمية فى كثير من البلاد فى العهد الرومانى ، وذلك أن الإسكندر المقدونى حين مد فتيحاته فى الشرق نشر معها فكر اليونان ولغتهم ، وكان يصحبه أستاذه أرسطو يلقى

محاضراته ويمليها على طلابه وأنشأ الإسكندر عدداً من المدن تحمل اسمه وتنسب إليه . بقيت منها أسكندرية مصر .

فلما حلت روما محا اليونان لم يكن من الهين عليها ولا فى اتجاهها أن تمحو اللغة اليونانية أو تزيل ثقافتها ، بل إن الفكر الرومانى لم يكن إلا صورة من الفكر اليونانى . ولكن حكم الرومان شمل مساحات من الأرض أوسع بكثير مما شمل حكم اليونان ، وامتد أيضاً إلى زمن أطول . وظهر فيه فلاسفة وكتاب وخطباء وساسة لا تزال أسماؤهم بارزة ولامعة فى التاريخ الإنسانى العام وكان فى ذلك كله منه للفكر اليونانى .

لهذا يعنى دارسوا الأدب يدرس الفكر اليونانى والرومانى .

ونحن نعرّض هنا معلومات عامة عارضة لاستكمال الحديث عن الخطابة .

" الخطابة عند اليونان "

توطئة :-

قضت البلاد اليونانية ردحا طويلاً من الزمن وهى قبائل مفككة تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد ، ولكنها أجناس شتى نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها إلا المجاورة واشتراك الأعمال . وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب وتتخذ على نحو ما تسف الياذة هوميروس . والالياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية هى كتاب اليونان المقدس ، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الاسرائيليين ، تقوم الالياذة بتسجيل تاريخ اليونان .

ومن أحداث تاريخهم البارزة قيام التنافس بين أتينا واسبرطة ، وقد اشتد هذا التنافس حتى أدى إلى حروب لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق . م . وكانت نهايتها هى استسلام أتينا وزعامة اسبرطة على البلاد اليونانية كلها ولكنها لم تعمر طويلاً مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ ق . م ، وهذه أيضاً لم تعمر طويلاً فانتهت سنة ٣٦٢ ق . م .

وكان ذلك بظهور فيليب المقدونى والد الاسكندر الأكبر ، فقد شن حرباً على كل من طيبة وأتينا وهزمهما ، فانتقلت الزعامة إلى مقدونيا ولكنه ملت سنة ٣٣٦ ق . م حين كان يستعد لغزو الفرس ، فقام ابنه الاسكندر بتحقيق

كل ما كان لأبيه من آمال .

جال الاسكندر الأكبر فى أطراف الشرق الأوسط ما بين مصر وحدود الهند ، ثم مات فى بابل عام ٣٢٣ ق . م وكان عمره ٣٣ عاماً أى أنه حقق كل هذه الفتوحات فى نحو ثلاث عشرة سنة ، إذ هو تولى الحكم وعمره عشرون سنة .

من هذا نجد أمرين ظاهرين فى حياة اليونان :

اولهما : أن هذه البلاد وهى مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبت الفكر الإنسانى فى أنحاء العالم كله ، فشلت فى جانب سياسى عظيم ، وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تاج واحد .

وثانيهما : أنها تبعا لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون فى حروب محلية بين قبائلها المختلفة ، ولم تحقق فى هذا المدى الطويل ما حققه الاسكندر فى زمن قصير .

دوافع الخطابة عند اليونان ومكانتها :

والخطابة تنضج وتقوى عادة فى أيام الحروب والمشادات . وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها على الخطابة ، ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ . من هؤلاء " سولون " الاثنين وهو شريف وتاجر ثرى ، ظهرت مهارته الخطابية فى حرب قامت بين " أتينا " و " مجارا " بسبب تنازعهما على امتلاك " سلاميس " فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر ، فاستولى على قلوبهم وأثار حميتهم ، وقد أحبه الشعب وأسلس له

القيادة وكان يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها ، وهو إلى جانب خطابته الحربية مشرع وصاحب منهج اصلاح ، وقد توج أعماله بتنازله عن - سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الاصلاحية ، ولا تزال صور من خطبه محفوظة فى الآثار اليونانية وهى تمتاز ببلاغتها وقوة تعبيرها وعمق معانيها .

ولما قام فيليب المقدونى بحركته السياسية ، كان يريد أن يتحالف مع الأتينين وان يربط له بهم صداقة ، ولكن الخطيب الشهير " ديموستثيس " كان ضد هذا الرأى ، وضد فيليب ، فشن بخطبه عليه حروباً لم تكن أقبل من حرب الجيوش المسلحة ، وخطبه هذه فى نظر المؤرخين من أبلغ ما لف الاغريق من خطب ، كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء .

وإذا نحن رجعنا إلى الالياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية ، فهن ميزة من ميزات أبطالها ، وهى التى أبرزت مشاعرهم وصورت أحاسيسهم ، كما نجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها فى اقناع الجماهير ، مما يدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة فى حياة اليونانيين واخلاقهم .

نشاط الخطابة والسوفسطائية :-

وعندما سادت الديمقراطية بلاد اليونان وشاعت الحرية السياسية وأبيح لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه ، وأن يقترح على الحكومة ما يشاء نشطت

الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل ويدربون على حسن الحديث ومحاولة كسب الجولة فى تأييد رأيه . وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة ، وكان لعملهم لونان مختلفان ، أولهما : افساد المنطق والجنوح إلى اقناع الناس والحكام بأدلة كثيراً ما تكون مضللة ولكنها تستهوى السامعين . وثانى اللونين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فنا مستقلاً له قواعده وأصوله وكان سقراط - والد الفلسفة - أول أمره واحداً من السوفسطائيين ولكنه أنف من طريقتهم وأبغضها فأخذ على عاتقه أن يعلم الشاب المنطق وأن يربط بين النتائج والمقدمات . واعتمد سقراط فى عمله على الحوار الهادئ والقاء الأسئلة الساذجة ، ثم اعتراضه على الاجابة حتى يهتدى الذى يحاوره إلى الإجابة السليمة . وكان هذا الحوار نوعاً آخر من الخطابة آثارها بين أتباعه وأتباع السوفسطائيين .

نموها و ازدهارها :-

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ إلى سنة ٣٢٠ ق . م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها رواجاً وسموا واتقاناً . وتميزت بوضح الاقسام الثلاثة التى سبقت وهى خطب المحافل ، وأشهر أصحابها هو " جورجياس " الذى برع فى عدد من أنواعها ، والخطب القضائية وكان على محترفيها أن يجيدوا أعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان

هذا تعليماً واتقاناً للخطابة وأشهر القائمين بهذا العمل هو " لوسياس الذى سنذكر ترجمة له .

وازدهرت الخطابة السياسية ازدهاراً أوسع ابان الصراع بين أتينا ومقدونيا ، إذ انقسم الأتينيون على أنفسهم قسمين ، قسما يؤيد قيام فيليب واعتباره يونانيا ، وقسما يعارض أتينا لحكومته .

وهكذا سجلت الخطابة اليونانية صور الحياة فى اليونان واتجاههم الفكرى كما سجلت بلاغتهم وسمو أساليبهم .

أسباب رقى الخطابة اليونانية :

نجمل أسباب رقى الخطابة وتقدمها عند اليونان فى الأسباب الآتية :

أولاً : الحروب والثورات :

ما ذكرناه من اتصال الحروب والمناوشات ، وهى حالات تدعو إلى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وتشجيع المحاربين وأثارة الجماهير .

وهكذا فهى مواقف تقوم على الخطابة وتعتمد عليها ، وكل ذلك يدعو إلى تجويد الخطابة ولظهور الخطباء .

ثانياً : الوضع السياسى :-

فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تعد نفسها اعداداً عسكرياً بحتا ، كانت اسبرطة مركزاً فنيا عاما ، نشطت فيه التمثيليات والفنون والخطابة والادب ، والتمثيليات والمسارح ليست إلا منابر للخطابة فكان فى كلتا المدينتين نهضة

خطابية وتدريب على حسن الالقاء .

ثالثاً : الحرية ودورها فى ازدهار الخطابة وعند اليونان :-

الخطابة فى ظل الحرية :-

كان نظام اليونان السياسى مشجعاً أيضاً على الخطابة فكانوا إذا عرض أمامهم رأى من الآراء قام صاحبه أو مؤيده بتقديم حججهم ، وتوضيح الاسباب التى تدعو إلى تشريعه أو رفضه ، فساداً انتهى الخطباء المؤيدون والمعارضون من خطبهم طلب من الحاصرين أن يعلنوا رأيهم ، والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية ، فكان الخطباء يتبارون فى تنسيق عباراتهم ، واختيار اساليبهم المجازية ، والفاظهم المؤثرة الجذابة كى يجتذبوا مشاعر الجماهير ويستميلوهم اليهم .

رابعاً : النظام القضائى فى اليونان القديمة :

كان النظام القضائى يؤدى مثل ذلك أيضا ، فقد كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون على المائة ويلح أيضاً عند الرومان نحو أربعمائة ، وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهوراً ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير فى عواطف القضاة ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية ، فكان ذلك مدعاة إلى نهضة الخطابة لانها هى التى تحقق للمتقاضين ما يريدون .

يضاف إلى ذلك أن القضاة كانوا حكاماً ومشرعين ، وليسوا فقط مطبقين

للقانون الموضوع ، فاذا استمالهم المحامى باسم العدالة العامة والشفقة إلى شيئ يخالف القانون عدلوا عن نص القانون ، ووضعوا تشريعاً جديداً أو سبباً عاماً للحكم الذى يريدون .

خامساً: نظام المرافعات والدفاع عن النفس وظهور المنطق :

كان النظام اليونانى يقضى أن يدافع كل شخص عن نفسه ولم يكن لديهم نظام توكيل محام بمهمة المرافعة ، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها ، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير فى عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم ، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعداداً لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء ، ونشأ عن هذا جماعة السوفسطائية الذين برعوا فى تغيير حقائق الأشياء وتحويل أذهان الناس إلى ما يريدون لا إلى ما تتطلب الحقائق ، وهؤلاء هم الذين حاربهم سقراط ، وعمل على تعليم الشباب المنطق والبحث عن حقائق الأشياء من أجلهم .

هذا النظام كما هو واضح نظام سيئ فى جانبيه السياسى والقضائى ، ولكنه شجع على تعلم الخطابة ورواجها [ومن خطباء اليونان الخالدين " سولون " الذى ذكرناه من قبل " ثم " بريكليس " و " ديموستنيس " .

أبرز خطباء اليونان :

نبذة تاريخية عن بريكليس :

ولد " بريكليس " فى أثينا سنة ٤٩ ق . م أو نحوها ، من سياسى مشهور له مواقف وطنية مشرفة ، وتلقى ثقافته على مشهورى عصره ، علمه " زينون " البلاغة ودربه على قوة الجدل وادارة الحوار والتغلب على مناظريه ، كما تلقى الفلسفة عن الفيلسوف الكبير " أناكساجزراس " كما أخذ بحظ كبير من الموسيقى والفنون الجميلة . ونشأ ، بريكليس " هادئ الطبع ميالا إلى التفكير العميق محبا للديمقراطية وذلك فيما يبدو من أثر درسه الفلسفة .

وقد شهد فى سباه ذلك الصراع العنيف بين أثينا واسبرطة كل تريد انتزاع زعامة البلاد لنفسها ، وبرز فى أثينا اتجاهان متضاربان أحدهما يدعوا إلى مسالمة البلدين وتجنب الخصام ، وتزعم الدعوة لهذا الرأى خطيب سياسى يدعى " سيمون " أو " كيمون " وفريق آخر اعتنق الاتجاهر المضاد وهو احتفاظ أثينا بالزعامة ولو أدى ذلك إلى اعلان الحرب والانغماس فيها ، وكان على رأس هذا الحزب " تموستوكلس " وفى عام ٤٧١ ق . م هزم هذا الزعيم واقتضت هزيمته أن عن أثينا وقام مقامه " برسكليس " وأخذ يدعو إلى مبادئ حزبه - الحزب الديمقراطى - فبهر الناس بخطابته وشعر " سيمون " رئيس الحزب الارتقراطى أنه أمام خصم أقوى من سابقه ، وما

زال " بريكليس " يترقى فى حزبه حتى آلت إليه زعامته والتف الجمهور الاثينى حوله فصد لخصمه عشرة أعوام أبعد " كيمون " بعدها عن أثينا أيضاً .

امتدت زعامة بريكليس نحو ثلاثين عاما من ٤٦٠ - ٤٣٠ ق . م .

وتعتبر هذه المدة من العصور الزاهية الجميلة فى أثينا ، لأن ابريكليس متعها بنظم ديمقراطية مبتكرة كما أنهض الفنون الجميلة وبنى الابنية الفخمة ، ومنها مبنى الاكروبوليس الذى لا يزال له آثار باقية إلى الآن وهو معبد البارثينون الذى زينه الفنان " فيدياس " برسومه الرائعة والمعبد على رأس جبل يؤمه آلاف السياح الآن ، وقد أقاموا خارجه تمثالاً للالهة أثينا وضعوه على ارتفاع سبعين قدماء وعلى مقربة من الاكروبوليس بنى مسرح كبير يسع ثلاثين ألف مشاعد ، وفيه مثلث الروايات التى أبدعها مشهورو الشعراء اليونان مثل " اسخيلوس " و [" سوفوكليس " ، و " أريستوفان " وغيرهم ممن لا يزال الادب العالمى يجعل بأعمالهم . وهو مسرح " ديونيسيوس " أو الأديون .

كان عصر " بريكليس " عصر وديمقراطية وكانت اسبرطة اذ ذاك تعد نفسها اعداداً عسكرياً ، فلما مات " بريكليس " انفرجت مسافة الخلف بين البلدين وجثت أثينا تحت أقدام خصومها ، وكانت حياته بسبب قوته

الشخصية والتفات الناس حوله ستاراً يخفى حقيقة أثينا ، وكان له اهتمام بالبحرية ، وكان أسطوله الكبير يتجول فى بحرايجة فيبهر سكان الجزر ويزيدهم تعلقاً به ، ولكن يبدو أن أعماله البحرية كانت أيضاً من نوع الفن والجمال ، دربت الشباب على السباحة والأعمال البحرية ولكن لم تكتسب مجداً حربياً .

ومهما يكن الأمر فقد كانت بلاغة " بريكليس " وقوته الخطابية كمن أهم أسباب نجاحه ، وقد أدت ديمقراطيته إلى ظهور خصوم مناوئين له ، فكانوا يطعنون جهازاً فى سياسته ويتهمونه بتبديد أموال الامة وكان هو يدوره يبادلهم الحجج ويناطحهم بالخطب الطنانة التى كان يلقيها ، فيسحر بها مسامعيه ويستهوى قلوبهم .

وتوجد الآن باللغة الانجليزية مجموعة من خطب " بريكليس " ولا بد أن يكون فى اللغات الأخرى صور منها ، أو مجموعات غيرها وهى فى ترجمتها لا يمكن أن تنقل روح البلاغة الأصلية التى كتبت بها ولكنها تعكس جدلاً منطقياً وروحاً فلسفية تعتمد على المنطق واقامة الدليل .

ومات " بريكليس " سنة ٤٢٩ ق . م فى طاعون تفشى فى البلاد ، وذهب بعدد كبير من سكانها وذهب فيمن ذهب اخت لبريكليس وابناه ثم قضى عليه أيضاً ، وأحدث موته فراغاً واسعاً فى سياسة أثينا ، وانحطت درجة الخطابة بعده ، وقام مقامه عدد من صغار الخطباء والسياسيين اثبتت

الأحداث فشلهم وضعفهم الفكرى والخطابى والسياسى .

نبذة تاريخية عن ديموستنيس :

ولد هذا الزعيم العظيم فى أثينا سنة ٣٨٤ ق . م ومات سنة ٣٢٢ ق . م وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا ، وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية ، وما امتاز به من لسن وبلاغة .

نشأ " ديموستنيس " يتيما ، ولكن يظهران يتمه ومعاناته منذ صغره ، ووقوعه تحت ظلم اقاربه مما أنضج عوده ، ودربه على الاعتماد على نفسه أولا ثم حبه للكفاح والمعارك ثانيا ، وقد ترك له أبوه ثروة كبيرة اغتال أوصياؤه جانباً منها ، فلما شب وادرك قاضى هؤلاء الاوصياء ليسترد حقوقه المغصوبة ، وظهرت براعته فى ميدان المحاماة كما ظهرت فى الميادين الأخرى .

مالت نفسه منذ صباه إلى الخطابة فأخذ يعد نفسه لها زغم ما كان به من عيب خلقى يحول دون نبوغه فيها ، فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ولكنه بذل جهداً كبيراً جداً فى تعويد لسانه على النطق والابانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الايام والساعات الطويلة وهو يقرأ بصوت جهير ولهجة خطابية تصحبها الاشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهوراً ونحافى فى هذا منح العرب ، فقد كان من يعتزم حفظ القرآن مثلاً يقيد نفسه بالحديد

ويعتزل الناس وكان " ديموستنيس " يحلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس فى هذه الحالة ومن محاولاته أيضاً أنه كان يذهب إلى البحر ويضع فى فمه حصاه ، ثم يقف ليخطب محاولاً ابراز حروفه وتجويد كلماتها رغم وجود الحصاة فى فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقى ، وكان يتخيل الامواج جموعاً معاشدة ، تسمع إليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيباً كبيراً . وهو فى فاتحة حياته درس القانون ودرس الخطابة واتخذ منهما معا عونا له فى مقاضاة خصومه والدعوة إلى مذهبه السياسى .

سياسته :

وكان مذهبه السياسى يقوم على الدعوة أن تكون أثيناً زعيمة البلاد اليونانية وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعاً ومرجع هذه النزعة لديه ولدى من سلكوا هذا المسلك قبله ترجع إلى التعصب للعنصر الايونى الذى ينتمى إليه أهل أثينا ، بينما ينتمى أهل اسبرطة إلى الدوريين وكانت اثينا بحق مهدا للديمقراطية بينما كانت سبرطة تتسم بالارستقراطية . أما سائر البلاد والجزر فكان سكانها من جنسيات أخرى ، وكانوا فى أغلب الأوقات المستقلين ، وأحياناً ينضمون إلى إحدى المدينتين الكبيرتين ولكن لم يستهوهم أحد ما استهواهم ديموستنيس .

معارضته لفيليب :

عاصر " ديموستنيس " قيام فيليب المقدونى والد الاسكندر ، وقد قدمنا أن فيليب كان يريد تحاشى الحروب ، لكن ديموستنيس كان يرى أنه حاكم مستبد وأنه يريد فرض سلطانه على اليونانيين ، كما يرى أن حكم المقدونيين حكم عنيف بعيد عن الديمقراطية والعدالة ، وأن حكم اليونان هو الحكم الانسانى العادل ، وقد اعتمد كل من الرجلين فيما اعتمد على الخطابة ، وكانت خطبهما أشبه بالنقائس . كل يدعو لفكرة ضد فكرة صاحبه ، وكل يدعم رأيه بالادلة ويدحض رأى صاحبه وكان " ديموستنيس " يحرص على فيليب ويحذر من وقوع أثينا تحت يده وتنازعا معا مدينة ثيبة كل يسعى لضمها إليه ، فلما ذهب إليها ديموستنيس وجد أعوان فيليب قد سبقوه إليها ولفتوا أذهان الناس إليهم بخطبهم ، ولكنه أظهر مهارة خطابية رائعة ردت سكان ثيبة اليه ونجح فى مسعاه إذا انصت المدينة إلى أثينا وأيده نصره الخطابى نصر آخر حربى هزم فيه فيليب وجيشه .

وخطبه فى كل هذه المحاولات تعرف باسم الخطب الفيليبية .

ولما تولى الاسكندر الاكبر مركز أبيه لم يثبت اليونان أمامه .

فاختار ثمانية من الخطباء لقتلهم كان ديموستخيس أحدهم ، وأظهر الاسكندر نبلا عظيماً إذ عفا عنهم جميعاً ، لكن ديموستنيس ظل على رأيه فى عداء الحكم المقدونى ، فلما مات الاسكندر قام هذا يدعو من جديد إلى

معاداة المقدونيين ولكنه سياسته فشلت ، وفقد مكانته فحكم عليه بالاعدام ، ورأى هو أن يفلت من هذه العقوبه فتجرع السم ومات سنة ٣٢٢ ق . م . ولكن خلدته آثاره الخطابية .

يعتبر " ديموستنيس " خطيب اليونان كما يعتبر " هوميروس " شاعراً وشخصية هوميروس غير مقطوع بوجودها ولكن ديموستنيس مقطوع بوجود وأعماله حقائق تاريخية .

كان خطيباً سياسياً واجتماعياً وخطيباً قضائياً ومعلم خطابة وكان لخطبه ميزة خاصة هى فخامة الأسلوب واختيار الالفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة ولا تزال له آثار باقية ، وتعتبر خطبة نماذج يحتذيها من يريدون اجادة الخطابة .

نهاية ديموستنيس :

كان ديموستنيس شديد الاعتداد بوطنه ، شديد التمسك بوطنيته وعقب موت الاسكندر ، قام بحث المدن الاغريقية على الاتحاد والتماسك ، ثم حرب الفيليين للتخلص من حكمهم واستطاع أن يثير شعور مواطنيه وهو فى غربته ، ولما عاد إلى أثينا استقبل استقبالاً رائعاً ، وحفه موكب كبير من الميناء إلى المدينة ، وقامت بذلك حرب تعرف بالحرب اللامية . فلاقت أول أمرها نجاحاً ولكن القائد الفيليين انتياتن أباد القوات الاغريقية فى موقعة كرانون وصدر أمر بقتل ديموستنيس ، ولكنه هرب إلى معبد بوسيدون فى

بعض الجزر ، وتابعه رسول من انتياتن ليرده فأخذ الرسول وكان م ، الممثلين المسرحيين فأخذ يغربه ويمنيه ، لكن ديموستنيس قال له : " ان وعودك لا يوثق بها " فهاد يهدده فأصر ديموستنيس على موقفه لأنه يدرك عاقبة استسلامه أسيراً لأعدائه ، فطلب من الرسول أن يمهله حتى يكتسب بضعة سطور ، ثم غافله وامتص مما كان فى طرف قلمه ، وأراح رأسه على يديه كما لو كان يفكر ، ولما استحثه الرسول على النهوض معه قال له : لقد آن وقتك لتلعب دور كريون لترمى بجسدى دون أن تدفنه ثم أخذ يخاطب بوسيديون :

" أيها المعبود بوسيديون . اترك معبدك وأنا على قيد الحياة ولكن انتيباثن واتباعه المقدونيين لم يتركموا حتى معبدك بدون تدنيس " ثم نهض ليقوم فسقط جثة هامدة على سلم المذبح وهكذا كانت الخطابة آخر ما فعل .

آثاره الخطابية :-

ذهبت معظم آثاره الخطابية ، ولم يبق الا أقل مما كان ينتظر ، وقد تضاربت الآراء فى مكانه الخطابية بين معاصريه وكان له معاصرون ينافسونه ويتفرقون عليه فى بعض الجوانب ويقاربون مكانته الخطابية العامة ، من أشهرهم موكبون واسخينيس ، وكان لكل ميزته كما أن ديونوسيوس كانت له كتابات أشد نقاء وأبلغ تعبيراً من كتابات ديموستنيس ، وكان كوميون أكثر تأثيراً ولكن تأثيره يرجع إلى شخصيته ومهابته . وله قدرة على

الإيجاز والتعبير على المعنى الواحد بطرق مختلفة عديدة ، وكان ديباسيس يرتجل خطبه ويؤدى بها تأثيراً أكثر منه ، وعلى أى حال حكم السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية ، وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون ، وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح واكثر مما وصلنا .

هذا من ناحية مكانته ، أما من ناحية أمثلتها فهاك مثالاً لاحدى خطبه المحرضة على فيليب ، وقد قالها فى موقف حرج كان الاثينيون فيه قد يئسوا من الحرب وركنوا إلى مسالمة هذا المحارب العنيف ومنها " سادتى ، يجب علينا بادئ فى بدء ألا نيأس من حالة شئوننا الحالية ولو أنها فى خطر لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل .

ماذا أعنى ؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب ، لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم ، وإذا ظلت الأمور كما هى - رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق فلا أمل فى التحسن ، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لاسبرطة منذ أمد بعيد ، والتى يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر ، ومع ذلك فقد قمتم فى وجه تلك القوة ونبل ، ولم تحطوا من قدر مجد وطنكم ، فواجهتم الحرب غير هيابين ولا مترددين لعدالة غرضكم .

لو ظن أحدكم أن فيليب لا يقهره ناظراً إلى ضخامة القوات التى تحت تصرفه وإلى أن مدينتنا قد فقدت كل الأماكن بلكان معقا فى ظنه ، وكان

اعتقاده يستند إلى أساس ، ولكن لينظر ذلك الشخص إلى أننا فى وقت ما كنا نملك " بودنا وميثونى و ... " وسائر تلك المقاطعة وأن كثيراً من القبائل الخاضعة له الآن كانت حرة مستقلة ، وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا لا إلى مقدونيا .

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون .. أن محاربة أثينا أمر جليل ، لأنها تملك كثيراً من الحصون التى تشرف على مملكته عنه ما لم يكن له حلفاء ، لما فاز بأى انتصار ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التى ترتجفون منها الان ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هى إلا جوائز الحرب التى تمنح فى مسابقة حرة ، وأن املاك من يتغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعياً لمن يتقدم إلى الحرب طالباً أن يحصل عليها ، وأن من يرغب فى العمل يجد وفى المجازفة قد يحلَ محل من يهمل الفرس .لا تظنوا أن فيليب اله آمن فى ممتلكاته إلى الابد ان هناك رجالاً يخافونه ويحسدونه ، حتى بين أقرب خاصته ، وانهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجدون منفذاً فى تباطئكم واهمالكم فاخلعوا عنكم هذه العادة . اذا ما سألت : متى تهبون من سباتكم وتقومون بواجبكم ، تقولون : سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة ، وماذا تخلفون فى الأزمة الحالية ؟ اعتقد أن أمة حرة لن تكون فى أعظم من الوقت الذى يكون سلوكها فيه مخجلاً وعارا عليها حبرونى يا سادة ... أتريدون أن تمضوا وقتكم فى ذرع الطريق يسأل بعضكم بعضاً : هل هناك خبر جديد

اليوم ؟ وأى خبر أخطر من أن المقدونيين يسحق أثينا الآن ، ويملى سياسته على اليونانيين ، يقول أحدكم : فيليب ميت ، ويقول آخر : بل هو مريض وما الفرق بين الحالتين لكل ؟ انه لو مات فيليب فانكم سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر ... ليت قوته هى التى رفعته ما رفعه جمده كم .

نظرة تحليلية للخطبة :

هذا النموذج من خطب ديموستتيس يعكس مظهر حماسه وغيرته الوطنية ، ومن ناحية الصوغ الفنى للخطبة نجده قد بدأ يدعو قومه إلى عدم اليأس من إصلاح ما تعانيه البلاد من سوء وهو بهذه البداية شجعهم واستمالهم إلى الاستماع إليه ثم انتقل فذكر الحال السيئة التى يعاونوها ، ولم يشأ أن يطيل فى تصويرها لأنهم يحسونها وغرضه الاساسى من الخطبة هو اثارتهم وتشجيعهم على حرب فيليب وقد استبد هذا العنصر وسلك له عدة مسالك .

ذكرهم بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان وقراها حملهم مسئولية ما حل ببلادهم ، وذكر أن تواكلهم وتوانيهم هو الذى هيأ لفيليب تقدسه ، ولبعث الأمل فى نفوسهم ذكرهم بانتصاراتهم على اسبرطة ، وهذا يعنى أنهم اذا هبوا فى وجه فيليب فانهم سينالون هذا الانتصار ثم وازن بين اقدامه وتراخى اليونانيين ، وأنه لو كان على مثل شعورهم لتوانى وناله الكسل . ولكن تكاملهم شجعه فكانت هذه الممتلكات التى تحت يده جوائز شجاعته ،

ثم دعا منح آخر فأشعرهم أنه يعانى محاربة الاعداء وانقسام الاتباع . مما يسهل مهمتهم ولكنهم لن يحققوا شيئاً وهم متخاذلون . ان تقاعدهم هو الذى أسلم بلادهم لفيليب ، ولو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر شخص آخر مكانه لان الأرض التى لا حامى لها يطمح فيها كل مسالك .

والخطبة مليئة بتوبيخ الأثينيين ولكنها أيضاً مليئة بصور التشجيع والاغراء .

نبذة تاريخية عن لوسياس :

فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الخطابة اليونانية قد بلغت حد النضج ، ومهر خطباؤها - بفضل تعاليم السوفسطائية - إلى درجة بالغة فى التأثير ومقدرة رائعة على تصوير الحق فى الباطل واظهار الباطل فى صورة الحق ، وقصة كوراكس مع تلميذه تيسياس مما يعطى صورة واضحة عن هذه السفسطة .

كان ايسوكرانيس قد كون لنفسه شهرة خطابية وأخذ التلاميذ يلجأون إليه يتعلمون منه ، والمتقاضون يطلبون منه اعداد خطب لهم بينما كان اندركيس يؤلف أيضاً خطباً لمن يطلب ، ولتبقى لاستعمالها فى الوقت المناسب ، وكان ايسيوس قد حبا إلى الشهرة وكان صغار الخطباء يتعلمون ممن فوقهم ويعلمون من دونهم لهذا كانت سوق الخطابة أورج سوق وأنفقه .

فى هذا البحر نشأ لوسياس وتاريخ ميلاده بالضبط غير متفق عليه ولكن

اشتهر أنه ولد سنة ٤٥٩ ق . م . وعمر أكثر من ثمانين عاماً . ولد فى أثينا ولكنه من أصل سيراكوزى وانتقل أبوه باغراء بريكليس إلى أثينا .

نشأته :-

ونشأة لوسياس فى هذا العهد حببت إليه الديمقراطية ، وقد درس الخطابة والبلاغة على تسياس - أحد البلغاء البارزين - فتفوق فيما تعلمه ثم استعمل لسانه وخطبه فى نصر الديمقراطية وقد عانى فى سبيل مبادئه كثيراً حتى حكم عليه بالإعدام لكنه هرب ، وفى منفاه عمل على تشجيع رفاقه دعاة الديمقراطية وعاش فترة طويلة يعد الخطب وأحياناً يلقبها ، فكان سياسياً وأدبياً ، ولكن معظم خطبه بها فثور عظيم لأنها كانت تكتب ولم تكن ملغاة .

منهجه الخطابى :-

كانت خطبه بسيطة الأسلوب والتركيب وأكثرها تمثل فى عناصر أربعة : المقدمة والعرض والبرهان والخاتمة ، وكما رأينا من قبل كان العرض والبرهان يندمجان حتى يعسر أحياناً أن نفصل بينهما ، لأن عرضة القضية لم يكن مجرد سرد ، بل كان يحوى تعليقات توضيحية قد تغنى عن الأدلة .

أما مقدمته فكانت عبارات موجزة تبت بصلة قوية إلى موضوعه وكان الخطباء فى عصره يستعملون جملاً خاصة لافتتاح الخطب ربما كررت فى العديد من خطبهم ، لكن لوسياس لم يكن كذلك ، فقد أثر عنه نحو مائتى

خطبة ليس فيها مقدمة مكررة ، وكذلك كان شأنه فى ختام خطبه ، يلخص لموضوعه ولا يعيد شيئاً من ألفاظه مما تثير مقدرته الكلامية ، وينسب إليه أربعمائة وخمس وعشرون خطبة ولكنها ليس مقطوعاً بأنها كلها من عمله ، ولكنها تدل على أنه من أثرى خطباء اليونان خطباً .

أسلوبه الخطابى :

أما أسلوبه الخطابى فكان بسيطاً مرناً كثير التلون ، أحياناً يستعمل عبارات مسجوعة وجملاً متوازنة . وأحياناً يستعمل كلاماً مرسلاً ، وربما أكثر من ذكر الجمل المعترضة ، كل ذلك حسب الموضوعات التى يتعرض لها والجزئيات التى تعالجها خطبته ، ونظراً لان مدار المرافعة فى هذا الوقت كان يتوقف على استمالة القضاة والتأثير عليها فى مشاعرهم كان الأسلوب ذا أثر كبير فى نجاح الخطبة . وقد ترك لوسياس خطباً منوعة توضح أسلوبه ومرونته وطرق مواجهته المواقف المتباينة ، ففى مرافعة أعدها للدفاع عن شاب أثينى عريق النسب حسن التربية يعترف بطموحه وبأنه ذو عاطفة مهذبة نجد لوسياس يجنح إلى جوانب فرعية ربما ليست وثيقة الصلة بموضوعه ، وهى حديثة عن أسرة الشاب وما لها من مآثر على الوطن العزيز ، ومنها :

نموذج أول :

فمن مثل هذه البيانات يجب انصاف الرجل الطموح فى حد الاعتدال فى

حياته العامة ، فلا ينبغى أن تمقتوا رجلاً لأنه يصفف شعره على طراز حديث هذه عادات شخصية بحتة لا تؤذى أى فرد ولا تسبب أى ضرر للمجتمع ، كما أنكم تستفيدون ممن يواجهون اعداءكم بمحض ارادتهم ، أنه ليس من المعدل فى شيئ أن تحبوا أو تكرهوا شخصاً ما بسبب مظاهره الخارجية ، وإنما يحكم عليه باعماله . فكم من أشخاص قليلى الكلام كانوا مصدر متاعب وأضرار بينما كانت هناك فئات أخرى على عكس تلك السجايا قامت بخدمات جليلة للمجتمع .

كذلك هناك من حنقوا على لانى تجرات على الحديث أمام الجمهور ، كنت فى نظرهم لا أزال غض الاهاب ، ولكنى أجبرت على الكلام عن أمور تخصنى ، وفوق ذلك فإنى بفطرتى طموح لدرجة كبيرة .

ان اجد أدى لم يكفها أبداً عن خدمة الدولة - وصراحة أرى مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع نقد يركم ، وطالما كانت هذه عقيدتكم فمن الذى يجرؤ على الدفاع عن الدولة بالقول والعمل ؟ .

ولم تغضبون على من يعمل ذلك ، وليس لا حد سواكم أن بحكم علمهم ، فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق .

نموذج ثان :

ومن خطب ليسياس الشهيرة خطبه أعدها للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة ثم اتهم بأنه كان يدعى ادعاءات كاذبة

للحصول على هذه المعونة ، وفى هذه الخطبة تبدو وروح السخرية والتهكم .
ومنها :-

... شكراً للمدعى على تقديمى لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة أجد سبباً به اتحدث عن حياتى ، وقد اتاح المدعى لى هذا السبب ، وما بين فى حديثى مدى خطئه ، وكذب تهمته واوضح لكم بالادلة القاطعة ان حياتى تستحق كل عطف وثناء واعجاب بدلاً من المغيره والاحقاد لا اعتقد أن هناك سبباً رغمه إلى تقديمى للمحاكمة إلا هذا السبب سبب الحقد والحسد . فما ظنكم بالخيبة والحقارة التى يهوى إليها من يحسد شخصاً يشفق عليه ويرثى لحاله الناس جميعاً .

طبيعى أنه لم يقم بالتبليغ عنى ليجنى من وراء ذلك أموالاً وهو أيضاً لا يقصد معاقبة عدو يريد أن ينتقم منه ، وإنما دفعه إلى ذلك سوء خلقه إذا لم يسبق لى أية معاملة معه .

واضح لكم من هذا أيها السادة أنه يغار منى فاننى على الرغم من عاهتى هذه مواطن شريف أحسن منه ان المرء المنكوب المصاب يعمل دائماً كى يعوض عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة ولو أبديت عقلية تتناسب وجسدى المنكوب الحظ . وصغت حياتى نبعاً لذلك لكنت شخصاً سيئاً مثله [وقد اتخذ من ركوبى ذريعة لاتهامى وليس لدى كثيراً قوله عن ركوبى الذى تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم ، فإنى

أعلم أن الذين يعملون تحت أى ضغط أو يتحملون اعمالاً فوق طاقتهم يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام .

ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون اننى واحد من هؤلاء وقد وجدت فى الركوب لأى مسافة شيئاً من الراحة ولو كنت ميسور الحال لنشدت راحتى فى ركوب بغل بدلاً من استعماره جواده ، ولكن ما حيلتى وليس لدى ما اشترى به أيه ؟ فانا مضطر داعماً إلى استعماره جواد .

انى لأعجب من هذا الاتهام يرانى استعمل عصرين وغيرى من المعرج والاصحاء يمشى وبيده عصا واحدة فلا برثى لى ولكن يتهمنى بالشرف والاسراف ؛ لأن الاغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون بين عصرين .

وهكذا تمضى الخطبة تستعرض المتهم واحدة بعد أخرى لتفتدها وتردها وتطلعنا هذه الخطبة على جانب من أخلاق الشعب الاثينى ونوع القضايا التى كانت تقدم لهيئات التحكيم .

نموذج ثالث :

وهناك مثال آخر من خطبه يبدو فيه الأسلوب القصصى وهو حديث عن مقتل شخص ، وفيه يتحدث زوج عن تصرفات زوجته :

وهكذا أيها السادة سارت الأمور حتى رجعت يوما من الريف على غير انتظار ، وبعد تناولى غذائى كان الطفل يصرخ ويتسلل ، وكان الخادم

يعاكسه قصداكي يصرخ ويصيح لأن ايراتوسنيس كان بالمنزل ولم أعرف كل ذلك إلا فيما بعد – وقد طلبت من زوجتى – اذ ذاك – أن تذهب إلى الطفل لتطعمه وتمنعه من البكاء ولكنها تباطات متعللة باغتباطها بعودتى بعد غياب طويل ، ولما انتهزتها ثانيا محتمسا ان تقوم لمراعاة الطفل قالت : نعم . سأذهب ، وما دعك أنت والخادم وحدكما لأنى اذكر ما حدث منك ذات ليلة وأنت سكران . فضحكت .

وقامت زوجتى وهى تتظاهر بالمزاح فى اغلاقها الباب ، ثم أوصدته من الخارج . لم أفكر فى شيئ ولم تدر أى شكوك بخاطرى ، بل ذهبت إلى مضجعى ناشداً للراحة بعد العمل المضنى فى الريف طوال ذلك اليوم . وفى الصباح الباكر عادت وفتحت الباب ولما سألتها عن سبب أيصادها الابواب طوال الليل أجابت بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ . فخرجت تبحث عن مصباح عند جارتها .

لم أجادلها لأنى كنت أظن كلامها عين الحقيقة ، ولكنى أتذكر جيداً أن وجهها كان عليه مساحيق رغم موت أخيها منذ أقل من شهر ، لم أسألها عن ذلك أيضاً ثم غادرت المنزل واتجهت إلى عملى .

وهذه الخطبة ترينا جوانب من حياة اليونان فى ذلك الوقت . وعن شيئ من زينة المرأة ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز .

الخطابة فى العهد الرومانى

لمحة تاريخية :

ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم فى تلك البلاد . وقد نشأت الحكومة الرومانية فى روما ملكية مطلقة تسمد سلطانها من السماء ومنذ سنة [٥٠ ق . م] تحولت إلى جمهورية . ولكن لم يكن لها امبراطور واحد . بل كان الشعب يختار حاكمين معا ، يحمل كل واحد منهما اسم القنصل . ومدة حكمها لا تتجاوز العام الواحد .

وكان يعاونهما من النبلاء والأشراف ذوى المناصب العالية فى الدولة ويبلغ عدد هؤلاء نحو السبعين ، ثم سمح ممثلين من الشعب أطلق على الواحد منهم اسم [تربيون] ولكن هؤلاء لم يزيدوا على عشرة أشخاص ، ولما بدأت روما تتوسع فى فتوحاتها وتغزو الممتلكات اليونانية برز قائد كبير هو [بومبى] . الذى قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط ، الذين كانوا يهددون تجارة روما ، فاختير رئيساً على آسيا الصغرى ، فمد فتوحاته إلى الفرات شرقاً .

واستولى على سوريا فأخضع القميس الأكبر فى القدس إلى سلطان روما . وكان ذلك نصراً عظيماً . فاختاره الشعب رئيساً على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم .

يوليوس قيصر :-

في هذه الأيام ظهر ثرى موهوب هو يوليوس قيصر . كان ماهراً فى قيادة الجيش والحروب محباً للعدالة . له مقدرة على الخطابة قلماً تستمع بها شخص آخر . وسرعان ما أصبح الحاكم المطلق فى الجهة التى هو بها. وكسب لإيطاليا مجداً جديداً . ومع كثرة الأعمال التى قام بها وجد متسعاً من الوقت ليكتسب قائمة بأعماله المشرفة ، وقدمها إلى مجلس النبلاء فى روما . فدل بهذا العمل على أنه كاتب بقدر ما هو خطيب ، وسمى مذكراته « التفسيرات » وهى لا تزال إلى الآن من الكتب المشهورة فى أنحاء العالم . ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة . ويقرؤها الآن البادئون فى اللغة اللاتينية لتعلم هذه اللغة . كما يقرؤها المثقفون للدرس والسياسة والتاريخ . وعندما انتهت مدته طلب [بومبى] وقواد آخرون منه أن يسرح جيشه ، ولكنه رفض واتجه إلى روما فخافه [بومبى] وفر إلى اليونان ثم إلى مصر حيث قتل غيلة بها . ولكن يوليوس فى هذه المطاردة قابل الملكة كليو باترا ملكة مصر فوقع فى غرامها وتزوجها وذهبت معه إلى روما سنة ٤٥ ق . م حيث أقيم لها استقبال رائع عظيم وأنجب منها ابنه قيصرون .

ومع هذا المجد الباذخ تمت أيضاً عداوات وأحقاد ضد القيصر واتهم اتهامات كثيرة وكان صديقاه بروتس وكاسيروس هما اللذان قادا المكيدة

ضده ، وعقدا له مجلس محاكمة رهيباً ظل الخطباء يذكرن أخطاء ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه ، ودهش القيصر للطعنة القاتلة من يد بروتس ، فالتفت وقال : حتى أنتِ يا بروتس ؟ .

وكان من أصدقاء القيصر وقواده أنطونيو وأوكتافيو ، فغضبا لمصرعه ووقف أنطونيو عند تشجيع جثمانه فألقى خطاباً مثيراً رهيباً استفز به السامعين وأثار غضبهم على قتلة القيصر - ثم طارد هو وأوكتافيو بروتس وكاسيوس إلى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين .

الإستيلاء على مصر وظهور المسيحية :

أصبحت السلطة الآن فى يد أنطونيو وأوكتافيو ، ومع بقاء الدولة الواسعة الأطراف فى وحدتها وكان أوكتافيو هو المختص بالأقاليم الغربية ، وكان أنطونيو هو المشرف على الشرق ، ولكنه أيضاً كقيصر وقع فى حب كليو باترا وكان زوجاً لاخت أوكتافيو ، فقامت بينهما معارك انتهت بنصر أوكتاف ودخول مصر فى قبضة الدولة الرومانية .

وفى وقت هذا النزاع ظهرت المسيحية ، وتسللت بطء الى اعماق الدولة الرومانية الكبيرة ، ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر لكنهم فيما بعد لمسوا فيها خطراً يهدد ملكهم ويزيزل عظمتهم ، فصبوا جام غضبهم على المسيحيين وأذاقوهم ألوان العذاب لكن الوثنية كانت قد فقدت سلطانها على نفوس الناس ، وسئموا ماديتها الفارغة فاقبلوا على المسيحية رغم ألوان التعذيب التى انتابتهم ولما جاء الامبراطور قسطنطين وجد المسيحية توشك أن تهز عرشه فقررها دين الدولة الرسمى ثم أخذ يكره الناس عليها ، وانعكست آيات التعذيب ، فعذب الوثنيون وأعفى المسيحيون ، لكن المسيحيون ما لبثوا أن انقسموا واختلفت آراؤهم فى المسيح فسببوا لأنفسهم عذاباً آخر جديداً وظلوا كذلك حتى ظهر الإسلام فى الشرق واستولى على أطراف الامبراطورية الرومانية فخلص رعاياها من هذا العذاب ، إذ أباح لكل طائفة مسيحية أن تتبع المنهج الذى تريد ، ولكل فرد

أن ينتمى إلى أى فرقة .

هذه لمحة عابرة تبرز بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه الدولة ، لم نر بدا من ذكرها قبل الحديث عن الخطابة فى هذا العهد .

الخطابة الرومانية :-

قلنا من قبل أن الخطابة لا تنمو الا تحت شمس الحرية ولم تكن حياة الرومان ممتعة بحرية كافية ، ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتى أشرنا إليها من مواقف بروتوس وأنطونيو ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو إلى الخطابة وتظهر الخطباء واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتوس من يوليو قيصر ثم من موقف انطونيو من بروتوس مجالاً لتمثيل سحر البيان وأثر الخطابة فى نفوس السامعين ولعل تمثيلية شكسبير الخالدة من أبرع ما يمثل هذا الموقف العجيب الذى ترجف له عواطف السامعين وحماساتهم ، مرة يغضبون عليه وأخرى يرضون عنه ويهجمون على قاتليه ، ولا تزال مرتبة أنطونيوس من الآثار الأدبية الرائعة ، وأشهر خطباء الرومان على الإطلاق هو شيشرون الذى نفرد له ترجمة وجيزة .

الخطابة فى العهد المسيحى :

وفى العهد المسيحى ظهرت خطب دينية وكان الموقف خليقاً أن يخرج خطباء ممتازين كباراً ولكن المسيحية ظلت كما ذكرنا مكبوتة فلما صارت

ديانة رسمية انشقت على نفسها واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكى ، و
ظهر هرقل بمذهبه الذى قام على وحدة الارادة ، والذى أراد به أن يوفق بين
المذاهب المتضاربة كان قُصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهباً آخر وكان
بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكم أفواه الخطباء .

نبذة تاريخية عن شيشرون

هو ماركوس ثيولوس ، عاش قرب نهاية الامبراطورية وشارك فى الحياة السياسية وظل نجماً لامعاً فى سماء الخطابة والسياسة والقاء حتى قتل فى سنة ٤٣ ق . م .

ولد شيشرون سنة ١٠٦ ق . م من أسرة ذات مال وثقافة ومحبة للفنون ، ودرس فى روما القانون والبلاغة والفلسفة والأدب اليونانى وله فضل كبير على اللاتينية ذلك أنه استعملها - دون اليونانية - فى كتابته ومرافعاته القضائية فاكبره الناس وقدروه وقلدوه .

كان محامياً قديراً وكاتباً أديباً وسياسياً لبقاً ماهراً .

فقامت شهرته على عملين أدبيين ، هما رسائله ومرافعاته القضائية كان له عدد من الأصدقاء خارج روما ، فكان يكتب لهم رسائل مطولة تصف جميع أخبار روما وما يحدث بها ، وكان يحشوها أحياناً بالنكت والسخريات ، كما تصف حياة الناس الأدبية والكتب التى تظهر ، وما يدور فى المجتمعات من أحاديث وهذه الرسائل وان لم تكن محل درس لمن يؤرخون للخطابة تعكس مقدرة الكاتب البلاغية ومدى ما كان يتصف به من ذكاء ودقة حس ، وهى جميعاً من مكوناته خطيباً وهذه الرسائل لا تزال محفوظة إلى الآن تعطى صورة حية عن حياة روما فى ذلك العهد .

خطب شيشرون :

أما خطبه القضائية فهى سبب شهرته ، وهى التى هيأت له أن يكون قنصلاً فتولى هذا المنصب سنة ٦٣ ق . م وأول خطبة لفتت الأنظار إليه كانت خطبة قضائية ضد رجل من ذوى النفوذ ، سوغ له شرهه المادى أن يلصق تهمة بأحد الأثرياء ليحكم عليه بالسجن ومن ثم استولى على ممتلكاته بثمن زهيد يكاد يكون إسمياً فقط ، وتولى شيشرون الدفاع عنه وكان يومئذٍ شاباً لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، فأبدى حماساً رائعاً وبلاغة قوية وحججاً واضحة مما أدهش السامعين والقضاة ، فبرئ المتهم وأعيدت إليه ثروته .

وله موقف آخر شبيه بهذا حين كان فى الثلاثين من عمره ، ذلك أن والى [صقليه] من قبل روما وكان يدعى [فيريس] أسرف فى ظلم السكان ونهب أموالهم ، فاختاروا شيشرون كى يدافع عنهم فأخذ يصور حال السكان وما يعانونه من ظلم الحكام الرومانيين واستهانتهم بهم مما رقق القلوب وهيج عواطف الرحمة لهؤلاء المساكين ، كما أبرز حكام الرومان فى حالة من الخجل من سوء تصرفاتهم وقد أغضبت خطبه هذه معارضيه من الأحزاب الأخرى ، ولكنها رغم غضبهم ارتقت به ليكون قنصلاً ، ولقب قنصل هو أرقى المناصب الرومانية ، وكان لقب الإمبراطور يطلق على قواد الجيش ، ولم يتخذ لقباً للحاكم الأعلى إلا منذ عهد أوكتاف [أغسطس] .

وبعد مصرع القيصر قام شيشرون بخطب كثيرة ضد انطونيو وأوكتافيو فأثار عداوتهما ضده فلما آل إليهما الحكم قررا إعدامه فقتل سنة ٤٣ ق . م كان شيشرون فيلسوفاً ، ومحباً للعلم والإستزادة منه ، فكان أثناء خلو حزبه من الحكم يعكف على القراءة والكتابة ويستزيد من درس الفلسفة ، وقد غادر روما مرة لمدة عامين طاف خلالهما بآسيا الصغرى وأثينا وبعض الجزر وعمَّق دراسته الفلسفية فى أثينا ، وله مقالات فلسفية كثيرة ، منها مقالات فى الشيخوخة ، والصداقة ، والواجب ورسالة فى طبيعة الآلهة ، وأخرى فى " النهاية الحق للإنسان " .

وترجمت آثاره إلى كثير من اللغات ، أما خطبه القضائية ضد فيربس فلا تزال إلى الآن مثالاً يحتذى من حيث جودة الأسلوب ورصانة التعبير وقوة الحجة وترتيب الأفكار .

وإذا كان [فرجيل] أعظم شاعر أنجبته " روما " فى هذا العهد ، وشيشرون أعظم خطيب ، فإنا نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جداً وهو أن فرجيل كان صدى لهوميروس " الإلياذة " ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته . أما شيشرون فيبد ونسيجاً وحده ، كما يبد واعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص .

وهو فى نظر المؤرخين خطيب وأديب وكاتب أكبر منه سياسياً ، وصفة الخطابة على أى حال سياسية أو قضائية هى أبرز صفاته .

ومما يفرق به بين اليونان والرومان أن اليونان أمة فلسفة وأدب وفنون ، أما الرومان فكانوا دولة سياسة وقوانين ، وكانوا يعتمدون على التراث اليوناني في الفلسفة والآداب ، ولهذا يقول المؤرخون :-

"إن اليونانيين غزوا الرومان فكرياً حين غزاهم الرومان عسكرياً

وأجمل مواقف الخطابة الرومانية هو ذلك الموقف الذى نشأ بعد مقتل يوليوس قيصر ، تذكر لك صورة منها ما يلى :-

خطبة هانيبال :

أيهــا الجنود : إنى لا أدرى إذا كــان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى ، فقد شد بكم الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة ، تهرعون إليها ، ومن بين أيديكم نهريو ، وهو أعرض وأسرع جرياناً من الرون ، ومن خلفكم جبال الألب تلك الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها الا بشق الأنفس حتى فى أيام وقرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم الا الفناء والنصر على الاعداء يوم لقائكم لهم .

لا تيأسوا فان تلك القدرة الإلهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيماً عظيماً ليكون لكم أجراً على انتصاركم ، وجزاء لا يوجد أعظم منه انسان من الله الباقى .

اننا ان لم تستطع ببأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسرد بنيّة اللتين سلبهما العدو من أبائكم سلباً كان ذلك جزاء وفاقاً لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما لكم من ثروة روما الطائلة ، وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها من الأمم الأخرى ؟ كل هذه ستكون فى حوزتكم .

إنى أربأ أيها القوم ، أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال أو تعتقدوا

كما يعتقد الناس أن اعلان حرب على روما أمر عظيم له وقع فى النفوس ، فلتعلموا أنه كثيراً ما تغلب جيش مستضغر على عدو مستعظم ، وصعد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس وكم ثلث عروش وأفنيت أم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

ولكنكم لو جردتم روما من اسمها الفخم البراق ، وصيتها الذائع ، فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم ؟ .

فهل يمكنك استخراج أبرز ما فى هذه الخطبة من عناصر ؟ .

حاول بفكرك أن تقيس ما فى هذه الخطبة من بث لروح الشعب الرومانى بنظائرها فى الواقع الإسلامى .

قلب بين جنبات التاريخ الإسلامى والمحتوى القرآنى ثم قم بعمل دراسة مقارنة بين الواقع الرومانى الذى جعل هانيبال يلقى بخطبته هذه والمضمون التاريخى الإسلامى ؟ ! .

ليتك تكتب بحثاً مفيداً فى هذا ؟ .

جرب نفسك ، وأعمل فكرك مبرزاً أهمية الخطابة من الواقع التاريخى فى العصر الحديث ؟ .

الفصل الثالث

الخطابة العربية قبل الإسلام

الخطابة فى العصر الجاهلى

توطئة :

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كانت لهم خطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها فى مواقفهم الهامة ، واستعملوها فى مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم ، وقد ذهب الكثير جداً من هذه الخطب مع الزمن ، وحفظ لنا التاريخ قليلاً جداً منها ، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين لم يبق من خطبهم شيئ ، ذلك لفشو الأمية وبعد الزمن وقد كانت أسباب الخطابة متوافرة لعرب الجاهلية ، فهم ممتعون بحرية لفما توفرت لغيرهم ، ولهم مقدرة قوية على الحديث وتشقيق الكلام ، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ، ويبعث الخطيب على الإستمرار فى حديثه ، ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال ومواجهة الموضوع الذى يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً ، ومع ذلك تأتى على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة .

قال الجاحظ : فما هو إلا أن يصرف [العربى] همه إلي جملة المذهب وإلى العمود الذى يقصد فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ولا يعنى هذا أن كل خطبهم كان مرتجلاً .

مواقف الخطابة فى الجاهلية :

وللخطابة الجاهلية مواقف كثيرة ، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القيم للتشاور فى أمر من أمورهم كالقيام بحرب ، أو الإصلاح بين متنازعين ، ويأتى فى هذه المواقف خطب ومحاورات ، ويتبع ذلك الوصايا التى يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقيمه أو لأولاده ، وفى أسواقهم كانت تقوم بينهم المنافرات والمفاخرات ، ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر ، وكانت هذه تتناول كل شيئ ، حتى إن الخنساء وهند بنت عتبة تنافرتا فى المصائب ، وكل ادعت أنها أصيبت أكثر من الأخرى ، وهذه المواقف تبرز :-

خصائص ومميزات الخطابة الجاهلية :

تظهر قوة البديهة العربية والقدرة البالغة على الإرتجال وأكثر ما نجد فى هذه الخطب أو الوصايا اتسامها بقصر الجمل وسرد الحكمن حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى ، وهى فى جملتها خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشئون الناس ، وأحداث الحياة وليس فى حِكَمهم بنايات فلسفية عميقة لقلة ثقافتهم وعدم دراستهم ، ولكن لهم نظرات صائبة وآراء حكيمة لا تزال نحتاج إليها ونستعين بها فيما يطرأ لنا من أحداث ومواقف تشبه ما طرأ لهم . وكثيراً ما يأتى

السجع فى عباراتهم عفوا ، فإن لم تكن العبارة مسجوعة ، كانت الجمل مقسمة متوازنة ، وخطب الأعراب وأدعيتهم من أبلغ وأجمل ما فى أساليب اللغة العربية .

وخطب الجاهلين وادعيتهم ومحاوراتهم ووصاياهم كلها مما يستعين به الخطيب الحديث ، ويجد فيها مدداً واسعاً بالرأى والفكر وبالتعبير والبلاغة . وعلى الراغبين أن يرجعوا إلى المصادر الأخرى ليجدوا مدداً أوسع وغذاء أوفى وأدسم .

صفات الخطيب وعادة الخطباء العرب :-

كان للخطباء فى الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ولا يزال الكثير منها موجوداً إلى الآن . ذلك أن أغراض الخطابة والوسائل المؤدية إلى الإقناع لا تتغير إلا قليلاً .

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شيئ مرتفع أو نشز من الأرض ، ليشرف الخطيب على مستمعيه فيروا شخصه حين يسمعون كلامه ، وليستطع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطابى إشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم ، فيكون ذلك أعون على التأثير والإستمالة ، وفى المواقف الحاشدة ، والمجامع الكبيرة يخطبون على ظهور رواحلهم ، وقد خطب رسول الله – ﷺ – بعرفة فى حجة الوداع وهو راكب ناقته القصواء وكان تحت عنقها ربيعة بن امية ابن خلف يعيد قول رسول الله – ﷺ – ويصرخ به لكثرة المشاهدين وبعد الذين فى أطراف المجمع عنه – ﷺ – وفى الحالات العادية يكون الخطيب واقفاً ، إلا فى خطب النسكات فإنه يتحدث وهو جالس ، ذلك لعدم كثرة السامعين ، ولأن المراد من الخطبة هو الاخبار بالزواج وتزكيته ، وليس ثمَّ موضع للإقناع والإستمالة ؛ كذلك كان يلوث عمامته ، ولا تكون سوداء اللون الا فى حالات المطالبة بالثأر ، وقد خرج امرؤ القيس إلى وفد أسد الذين قدموا عليه بعد مقتل أبيه ، وهو يعتم بعمامة سوداء ، وكان فيهم عبيد بن الأبرص ، وقبيصة بن

نعيم ؛ كذلك كان الخطيب يعتمد على شيئ فى يده ، عصا أو مخصرة أو قناة . وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للاشارة والإيجاء وقوة التأثير فى السامعين ، واستعمال العصا ونحوها مستحب أيضاً فى الخطبة الإسلامية ، وهو كذلك مما يستأنس به الخطيب ويحول بينه وبين العبث بيده .

ويستحسن فى الخطيب أيضاً أن يكون نظيف الثوب حسن الهيئة ، جهير الصوت ، هادئاً فى عباراته ، وقد مدحوا سعة الفم ، وذموا صغره ، وجعلوا من الجمال رحب الشدق ، وبعد الصوت وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل ، شريف النفس ، لأن ذلك يجعله أكثر تأثيراً ويجعل السامعين أكثر قبولاً لكلامه ، كما آثروا أن يكون مقتنعاً بكلامه عاملاً به ، ومعظم هذه الصفات مما أيده الإسلام ، وقد قال « على بن أبى طالب » : من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه ، ووقف زياد بن أبية يخطب فأعجب الناس حتى قال عمرو بن العاص " لله درُّ هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق الناس بعصاه " فهو لم يحط منه إلا خسة نسبه ولو كان كريم الأصل لساق الناس .

وكانوا يمدحون فى الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادئ المظهر قليل التلفت قليل التنحنح أو العبث بلحيته ، أو مس جبينه ، فهم يعدون ذلك من

أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة . كما عابوا التلعثم والإرتباك ، وقطع الجمل قبل تمامها ، واسكان الكلمات فى غير مواضع الوقف .

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل وكانوا لمقدرتهم الخطابية وطواعيه اللغة لهم يأتيهم السجع عفواً .

أشهر خطباء الجاهليين .

ومن أقدم الخطباء المشهورين كعب بن لؤى « الجد السابع لرسول الله – ﷺ - وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير ، وكان مهيباً مسموع الكلمة ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخاً حتى عام الفيل ، فأرخوا به حتى كانت الهجرة النبوة فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأ لتاريخ المسلمين .

ومن مشهوريهم بعد ذلك قيس بن خارجة بن سنان ، خطيب داحس والغبراء ، وفى هذه الموقعة أشتهر خويلد بن عمرو الخطفانى يخطبه فى حرب الفجار ، وقس بن ساعدة الأبادى ، خطيب عكاظ ، وأكتم بن صيفى والحارث بن عبادة وقيس بن مسعود .

الفصل الرابع

الخطابة فى عصر صدر الإسلام ومكانتها

تطورها وازدهارها

اولا: فى عصر الرسالة:

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع فى الخطابة ، اذ اتخذها الرسول - ﷺ - أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قيمه من قريش وكل من يلقاه فى الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو فى أثناء ذلك يخطب فى الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذى لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكالات الروحية والاجتماعية والانسانية ، حتى تتم لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التى ينبغى أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون فى سبيل الحق والخير ، وهو فى تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامى ، ومبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التى تقوم على معرفة الله

الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدمت يداه ولو كان مثقال ذرة ، وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حلت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول - ﷺ - متممة للذكر الحكيم ، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والاعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد ثبتت إلى اليوم ، وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجمع كانت الصلاة تسبقها فى الاعياد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ويقبل على الناس مسلماً ، وتبدأ الخطبة الأولى فى الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويؤثر عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة " الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ... وعادة

يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى له الجمعة بعض أى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ويقال انه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : " اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك " .

وكان آخر دعاء عمر : " اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى فى غرة ، ولا تجعلنى مع الغافلين ، وقل أن نفتتح خطبتا العيدين بالحمد لله ، انما تفتتح بالتكبير فيكبر الخطيب فى أولاهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن نقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ولا نقصد سجع الكهان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول - ﷺ - حين كانت تفد عليه وفود العرب على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخراً بقومه ، وقد ندب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوعباً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله .

ثانياً: الخطابة فى عهد الخلفاء الراشدين:

وتمضى فى عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التى تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء كموقف أبى بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ فى الموقفين جميعاً الشعث الذى كاد يودى بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة ، ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة أعد منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين فى كل مكان يحلونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر فى الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف فى أطباق الأرض ، وترتفع أصوات القواد بالخطابة فى كل قطر حاثين الجنود على الصبر فى القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب ، ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته ما لا تملكه الدنيا بحذافيرها . ولا إذا قلنا أن بلداً من بلدان الفرس فى العراق وإيران وبلدان الروم فى الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد كخطبة المغيرة بن شعبة فى القادسية وخالد بن الوليد فى اليرموك وعتبة بن غزوان فى فتح الابلة ، ونحن

نكتفى بقطعة من خطبة عتبه إذ يقول :

" أما بعد ، فإن الدنيا قد تولت حذاء مدبرة ، وقد آذنت أهلها بصرم ، وانما بقى منها صبابة كصبابة الإناء يصطبها صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم " .

ويتولى عمر فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والاعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خير يأتيه بفتح . وقد صار على هدى أبى بكر فى استشارة أصحابه فى كل منهم ، وكل ما يجد من تشريع وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة ، وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذا كان الحكم شوريا ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره وفسح عمر الخطابة الوفود فى مجالسه ، لأقوامها وتذكر حاجاتها ، واشتهر الاحنف بن قيس سيدتسيم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه .

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل مع المسلمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها . اذ تكاثر من يردونها ومن يحسنون حوكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود فى أحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة :

" أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم وأحسن السنن سنة محمد - ﷺ - وشر الأمور محدثاتها وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى خير الغنى غنى النفس ، الخمر جماع الآثام .. أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وسباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ..

مكتوب فى ديوان المحسنين من عفا عفى عنه . السعيد من وعظ بغير . أحسن الهدى هدى الأنبياء " .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى أذا أشعل للثوار عليه فى الكيفة ومصر تار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويقتل عثمان . ويتولى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ويستجيب أهلها لهم ، فيضطر إلى أن يتبعهم وينزل الكوفة وتكون موقعة الجمل المشهورة ، وفيها ينتصر على وتتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفى أثناءها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته .

وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة وممن يذكرهم بين من ثبطوا الناس عنه أبو موسى الاشعرى ، أمنا من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الاشعث بن قيس والاشتر النخعى وزيد بن صوحان وأخوه سيحان .

وانتدب على أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صفين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده وفى هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه وكان هو نفسه خطيباً مفوها . وكان بجيشه غير خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفا وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى ابن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعى وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لم الشعث ، ويقضى الأمر وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابة . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص . وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً . فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم ، مطالبين بالإحتكام إلى كتاب الله على يد محكمين يبتدون بآية ، ويخمد القراء فى جيش على سيوفهم ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على ، فيهددونه بأن يصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ويختار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو ابن العاص عن

أهل الشام ، وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ويتلومون عليها لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ويخطب فهم ويتكاثر الخطباء بين محبذ للتحكيم ومنفر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم فى حروراء بالقرب من الكوفة فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

ويحاول على وعبد الله بن العباس أن يرداهم إلى سواء السبيل فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم ويكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث ، وبذلك يعرف هذا العصر المناظرة الشفوية ، بل إنها لتتفجر تفجراً . ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى ، وهو يجرى على هذه الصورة :

" راجعهم ابن عباس ، فقال : ما نقمتم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل [إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما] فكيف بأمة محمد - ﷺ - ؟ فقالت الخوارج : قلنا أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو اليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا .

قال ابن عباس : فان الله عز وجل يقول [يحكم به ذوا عدل منكم]

فقالوا له : أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين ؟ وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دمائنا فإن كان عدلاً فلسنا بعدول ونحن أهل حربه ، وقد حكمتم فى أمر الله للرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم إلى الله عز وجل فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الإستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية .

ولما لم يسمح الخوارج ولم يطيعوا اضطرً علىّ إلى حربهم وفتك بهم فتكا ذريعاً فى موقعة النهروان . وكانوا يظهرون استبسالاً شديداً ، ويدفعهم إلى ذلك خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوس بن زهير السعدى والمستورد بن علفة ومن يرجع الى خطبهم يجدها تتقد حماسة وحمية من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه :

" أما بعد ، فوالله ما يتبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا - التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها وتبار - آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وان مسه ضره فانه من يمسه ضر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود فى جناته "" .

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدى الخوارج إل ، فى الظلام ، فتطعنه طعنة نجلاء ويسلم الحسن بن على الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

أسباب نمو الخطابة وازدهارها فى هذا العصر :

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نمواً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية ، وليس هذا كله ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذى مرنها وذللها لكى يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضئ به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يسمون كل خطبة تخلو منه بتراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شوهاء .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويعدونه على أنفسهم اعداداً طويلاً ، ثم يلقونه على الناس ، حتى لقد روى ذلك عن

عمر بن الخطاب وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبه فى نفوس سامعيه صبا ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الانصار .

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التاريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تقدم على الخلفاء .

يقول الجاحظ : " كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين " فتكوّن فى تلك الخطب أسجاع كثيرة " ، وبقية أخرى استظهرها بعص المتنبئة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامه ويقول الجاحظ أنه " عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه " ومما يروى له – إن صح – قوله : " سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سر نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم ، رب الغيوم والأمطار " .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول – ﷺ – لا يسجع فى خطابته ، وكان ينفر منه حين يلهج به

أحد محدثيه ، كراهية للتشبه بالكهان فى سجعهم وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة ، يدل على ذلك ما يروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحارا العبدى حين قدم عليه من غزو مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه " أرض سهلها جبل وماؤها وشل وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . ان كثر الجند بها جاعوا ، وان قلوا بها ضاعوا "" .

وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجاع أنت أم مخبر .

وكان الخلفاء بعد عمر ينكرون السجع على محدثيهم ، وأمامنا خطب القوم . وهى تخلو خلوا تاما من السجع إلا ما جاء عفواً فى العين البعيد بعد الحين ، ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع ، فانهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان هم كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحظ على الخطابة فى هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، اذ يحدث الناس واعظا ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الاسلام .

بحيث نستطيع أن نقول أن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلم بأطرافه وتفاصيله ، وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولدون ويفرعون . ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسعت جنبات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

منهج الرسول – ﷺ – فى خطابته :–

على هدى القرآن الكريم كله كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتى من اللسن والفساحة ما ملك به أزمة القلوب ، وكأنما كانت المعانى والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ماتهش له الأسماع وتصفى له الأفئدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حينا ، وحينا آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثا عن رسالته ، وداعيا إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ليجزى بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة – كما قدمنا – فى صلاة الجمع والاعياد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تلم ،

وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

" الحمد لله . أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، من يطمع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصمهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً وأوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة

ولا أفضل من ذلك ذكراً . وان تقوى الله لمن عمل به على ومخافة من ربه . عون صوق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وملكان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، والذى صدوق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل [ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد] فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله ، فى السر والعلانية [ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً] . ومن يتق الله فقد فاز عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وان تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوابحظكم ، ولا تفرطوا فى جنب الله . قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا أعداءه [وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم] وسماكم المسلمين [ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى على بينة] ولا قوة إلا بالله . فاكثروا ذكر الله واعملوا لما يعد اليوم . فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس .

ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه . ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم " .

والخطبة موعظة رائعة ، يستمهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بارساله اليهم كى يخرجوا مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا فى رعايته الالهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه ليتركوا اذن الوراثة الضالة والوسط الشفى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فانه يعلم خائنة الاعين وما يستكن فى الصدور ، وليقدموا من خشيته وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جناته ، إنه يقوم ما بعده مستعتب ، فاما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وأما النار وبئس القرار ، ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته وهى تقف منازات فى موعظته ، يستمد من اشعاعاتها ما يضيئ به كلامه بل ان وراء هذه الغارات منارات من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التى تفجرت منها ، اذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمحاسن نورها كما يشع نور الشمس فى السماء وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله . تشريعات قوامها مسلحة الجماعة وأن يعيش

المسلم متعاوناً متضامناً فى سبيل الخير وهو خير تستطيع عليه الجنة بنعيمها الخالد خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام فى حجة الوداع وهى تجرى على هذا النمط :

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم – عباد الله – بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد أيها الناس . اسمعوا منى أبين لكم . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا أيها الناس . ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام . الى أن تلقوا ربكم .

كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا . فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتنسه عليها . وان ربا الجاهلية موضوع . وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير المدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعيره فمن زاد فهو من أهل الجاهلية أيها الناس : ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه . ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من

أعمالكم .

أيها الناس [انما النسيئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض [ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم] ثلاثة متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد . أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم . ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس : انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه الا عن طيب نفسه منه ، ألا هل بلغت ؟

اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟

اللهم اشهد . أيها الناس : ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير .

ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس : ان الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " .

وواضح أن الرسول – ﷺ – لم يكد يلم بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التى أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب فى الجاهلية وحياتهم فى الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهيا للأموال ، وجمعهم الإسلام تحت لوائه فى جماعة كبرى متآخيه متناصرة لا يبغى بعضها على بعض . ولكى يقضى على كل سبب للحرب بينهم رد دم القتيل إلى الدول فهى التى تعاقب عليه ، ولكى يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح فى الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه باعلان ان دماء

المسلمين وأموالهم حرام ، ولن على كل من كانت عنده أمانة أن يره ها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يرعى أخاه فى ماله . فلا يأخذ منه شيئاً الا بالحق ، ومن ثم حرم الربا ، وبدأ بعشيرته متاجر اليوم العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباه . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية . فليس لمسلم أن يثأر لتقبل له وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج .

وأوجب فى قتل العمد القود ، ولكن الدولة هى التى تقوم به وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل فى القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالاشهر الحرم ، وضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثنى عشر شهراه منها أربعة حرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعانى علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفى الطرفيمن جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة ، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق واحسان .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين أخوة لكل منهم على صاحبه ما للاخ على أخيه من التآزر والتعاون

والتعاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا شفك للماء ، إنه لعهد من نقضه عاد كافراً آثماً قلبه ، لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر . فالناس جميعاً لآدم ولا عربى عدنانى ولا عربى قحطانى ، بل لا عربى ولا أعجمى ، فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، انما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل ، وبلغت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن فى الميراث وأنصبته . وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله ويرسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء . وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش . وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرم ذلك تحريماً باتاً ، وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبين فى خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته ، فإن ترك ذلك فالى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به . فى سلوكهم حتى تزكو نفيسنهم وفى عبادتهم لربهم وتقواه حتى التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكال الانسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها نصان فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابته ،

، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برآه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : [وما أنا من المتكلفين] والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابته أدق وصف ، فقال أنه [جانب أصحاب التقصيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن اعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة .

ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطيب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى ، من كلامه - [- ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى

فتق معانى هذه الخطبة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله فهو الذى رسمها وفجر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمته اليه .

ليختار منه أفصحه وأسلمه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحسن دقيق نتبينهما فيما روى عنه من قوله : [لا يقولن أحدكم خبثت نفسى ولكن ليقل : لقست نفسى] كراهية أن يضيف المسلم الظاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطبق إلا باللفظ المختار البرئ من كل ما يستكره ، اللفظ الذى يحبب إلى النفوس لحلاوته وعذوته وصفائه ونقائه .منهج الخلفاء الراشدين فى الخطابة :-

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة إذ سرى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحب رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه وقد نوه القرآن بذكره ، فقال جل شأنه : [فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى] وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معانى الإسلام وقبسه الروحية ، وقد آثرت عنه خطب

كثيرة تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته فى الدين ويقظته وصدق حسه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته ، فمن ذلك أنه - لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطراب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : ان الرسول لم يمهت - أقبل فكشف عن وجهه ، فقبله ، وقال : بأبى أنت وأمى طبت حياً ميتاً . وخرج من عنده ، فبدر السحابة بخطبته المشهورة التى قال فيها " من كان يعبد محمد فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يميت " ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى [انك ميت وانهم ميتون] وتلا : [وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم] ثم تلا [كل نفس ذائقة الموت] ثم تلا [كل شيئ هالك إلا وجهه] . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم .

ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة يقولون : منا أمير ومن قريش أميره فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر اليهم قبل أن يستفحل الشر ، وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطب فى الأنصار فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له . فخطب فى الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال :

"أيها الناس : انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على

حق فأعينونى . وان رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم " .

وأخذت تتجلى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة ، فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول ، وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى اليه كثير من المهاجرين والأنصار يقولون له إلا قبل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة فقال قوله المأثور : " لو منعونى عقالا مما أعطوه النبى لجاهدتهم عليه " وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظا يستمد مادته من القرآن الكريم وكلام الرسول على شاكلة قوله فى خطبة له :

"ان الله عز وجل لا يقبل من الأعمال الا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم واعلموا ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وحظ ظفرتم به وضرائب أديتموها وسلف قدمتوه من أيام فانية لأخرى باقية .

لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟

.. أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ .

قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ... ألا ان الله لا شريك له . ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته وأتباع أمره . واعملوا أنكم عبيد مدينون . وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما أنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة " .

وامتن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة وهو فى وصاياه يصدر عن روح الإسلام الصيحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا يفسد وازرعاً ولا يستحلوا مالاً إلا لمأكلة ولا يستعرضوا لرهبان النصارى وتسير ذلك كلمة وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره الى مشارف الشام وفيها يقول :

"أيها الناس : قفوا أوصيكم بعشرة فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تسئلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقعروا نخلاً ولا تعرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحون شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم

وما فرغوا أنفسهم له " .

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبى بكر أنه لك يكن يلهج بسجع انما كان يلهج بكلم فسيح جزل واضح الدلالة عما فى نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الادلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ قد يظن أن النفى مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا وعافاك الله " .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفى رسول الله وقد أعز الله به الإسلام فى مكة حين أعلى ولاء لرسوله وما زال منقطعاً إليه والرسول يقر به منه ويتخذه موضع مشورته ، حتى توفى وخلفه أبو بكر . فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها فى رجاحة عقل ، حتى إن أحد لم يرد عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً . وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم .

مجنداً للاجناد ، حتى فتحت فارس وثم فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالئ ، والحافظ لرعيته . وكان بيانه فى مقدار عقله قوة وسداداه اذ كان فى مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة .

حتى قالوا انه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء ، فما هو إلا أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم فى الجنود ناصحاً حتى يهدر بكلامه وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله فى إحدى مواعظه :

"ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ... وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم فى البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان ورسوله ، فأنتم مستخلفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم ... والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد ... فنال الذي لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته " .

وسار سيرة أبى بكر فى تشييع الجيوش بالخطابة محرضاً على الجهاد حتى ينتشر الدين الحنيف فى أقطار الأرض وهو لن ينتشر إلا بالقوة التى تعز وتعلى سلطانه ، انها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التى وعدها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يبرز هذه المعانى محاولاً أن يرتفع العرب فى جهادهم عن ضعف المخلوق ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول فى بعض هذه الخطب :

" اين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ليظهره على الدين كله] والله مظهر دينه ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون ؟ .

ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد وهو أبو عبيد بن مسعود وقال له : " اسمع من أصحاب رسول الله -ﷺ- وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف " .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبى بكر فى الفصاحة والبيان . ويروى أنه ارتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة فى الناس فقال : " أن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى امام عادل أحوج منكم إلى امام خطيب " وليس معنى ذلك أنه كان يرتج عليه

دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكله قوله حين بايعه أهل الشورى والناس :

"أنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم . ألا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا واخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عز وجل [واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً] .

وامتحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلوا القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يحدثوا فتق هذه الفرقة وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تبطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيسبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس . وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل

الشـام ، فـاصـطدم بهم جـمـيـعـاً ، وانتـقل إلى الكوفـة يجـمع الناس ويحـاربـهم . وانتـصـر على الثـلاثة الأولين ، ودخل مع مـعـاوية فى حـروب صـفين . ثم كـانت خـدعـة التـحكيم ، وخـرج عليـه فـريق من جـيـشـه فـاضطر إلى حـربه ، وهو فى كل ذلك ويخطب واعظاً حـينا وداعـيـاً إلى جـهـاد خـصـومـه حـيناً آخـر . وكـان خطيـباً مـفـوهـاً لا يشق غـبـاره ومن مواعظه قوله :

" ان الدنيـا قـد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخـرة قـد أقـبلت وأشـرفت باطلاع ، وان المضبار اليوم والسباق غداً . ألا وأنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فـمن أخلص فى أيام أمله قبل حضـور أجله فـقـد نفـعـه عـمله ، ولم يضرره أمله . ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرهبة ألا وانى لم أر كالجنة قام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها .

وطبيعى أن تكثر خطبه فى حروب خصيمه وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهد هم ويخطب فى أصحابه حاثا لهم على الجهاد ، ومن قوله فى خطبة له بآخرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده ، وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق :

" ان الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن توكه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وميم الخسف ، ومنع النصف ألا وانى

قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً واعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قم قط في عقر دارهم الا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي . واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شنت عليكم الغارات ... فيا حجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم وفشلكم عن حقكم .. حتى صرتم هدنا يرمى وفيئاً ينتهب ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون .. قد وريتم صدرى غيظاً ، وجرعتمونى الموت انفاساً ، وأفصدتم على رأيى بالعصيان والخذلان " .

وقد خلف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما ينسب إليه من خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فان كثرته وضعت عليه وضعاً . وقد تنبه إلى ذلك السابقون . واختلفوا فى واضعها هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثانى سنة ٤٠٦ .

وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان الاعتدال وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه " الرجال " إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى وأقر هو نفسه بذلك ، اذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه باسمه : نهج البلاغة ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه " مجاوزات الاثار النبوية "

والمظنون أن الوضع على قديم . فقد ذكر السعودى فى مروح الذهب أن أربعمائة خطبة ونيفا وثمانين يتداولها الناس .

ولعل فى ذلك ما يدل على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيئ منها إلا إذا جاء فى المصادر القديمة التى أشرنا إليها ، وأن ما جاء فيها لكاف فى تصوير قدرته الخطابية واحسانه احسانا كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قدمنا كيف ارتقت الخطابة فى هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وارشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة . منها ما يتصل بالجهاد والحرب ومنها ما يتصل بالمناظرة فى الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

الفصل الخامس

الخطابة والخطباء فى العصر الأموى

أولاً : حال الخطابة :

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى امية ، اذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الافصاح والافهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد استمالة الإسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من اشادته بهذه القدرة ان رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً وانه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتوج هذا النشاط بكتاب الخطابة الارسطاليس .

ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه انهم يتخلفون عنهم وعن العرض جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النشر القولى .

ثانياً : أسباب ازدهار الخطابة فى هذا العصر :

وعوامل مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان ينتظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مر بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تقصر على بنى أمية أو تكون حتى شائعاً للمسلمين جميعاً أو ترد إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقاً للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاها خيرهم زهدا وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجون فى أول الأمر عليا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قدداً ، فكان منهم الازارقة والنجدات والصفرية والاباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب

ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم فيطلبهم زياد بن أبية ، وقصته مع حجر بن عدى مشهورة ، ويتوفى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يقتل بكربلاء دون غايته ، ويتوفى يزيد بن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صرد ، وتبوء بالخذلان . حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيقضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يقضى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعوا إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الامويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق واخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب واسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغى أن لا تقصر على قريش وأن ترد إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكندى يعبر عنه فى

ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل ، ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، اذ يستشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية . يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية ، وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلون الطريق ، وكل ذلك هيأ فى قوة النشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مر بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمينة من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة . وكذلك خصومات تميم والازد فى البصرة وما اندلع من السنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى - كما قدمنا - خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول - ﷺ - وخاصة بعد فتح مكة . ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها ، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده .. وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها فى بيعة الخليفة الجديد وفى بث شكواها حين يلم بها ما يوجب الشكوى ، وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية . وكانوا يسمون محافل هذه الوفود باسم المقامات وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه . ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة حينئذٍ يتبارى خطباؤها . ويحاول كل منهم أن يكون له قصب السبق فى البيان والفصاحة .

وبجانب المحافيل والسياسة دفع الإسلام إلى نشاط واسع فى الخطابة إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأيان ركز الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ

الحسنة ، يسهم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء ، ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول -ﷺ- وكثر افراد هذه الجماعة فى كل مصر ، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى ، وكانوا يستهوون الناس . بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الاخبار تزيداً شديداً مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والازدراء على خصومهم فارضين لهم رواتب ومكافئات شهرية ولعل من الريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثون فى الجيوش لتخميس الجند على القتال . كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، اذ نجد عتاب بن ورقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقص على جنده محمساً لهم كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الازدى الناسك المشهور ، ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ومن كبار قصاصهم صالح بن مسرح الصفرى ، وفى الطبرى طرف من قصصه ، وكذلك كان

يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جهم ابن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارب بن سريج بخراسان .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقى العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدل كثير يشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يعد المسلم مؤمناً وان لم يؤد الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الارادة وهل الإنسان مخير فى الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة ، ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجهرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله ، وهم من هذه الناحية يعدون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبى ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضمت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء ، وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين ، وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقياً بعيداً .

ثالثاً : أنواع الخطابة فى العصر الأموى :

١) خطباء السياسة :

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً اذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون الترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار ، وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، اذ كانا شديدى الحماسة لعقيدتهم ، ولم يدعوا لها سرا كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل

دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور حطيهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها اذ كانوا يرون فيهم ثوارا خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فانها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم .

وأول من يلقانا من خطبائهم حيان بن ظبيان السلمى والمستورد ابن علفة لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية .

ولا نلبث أن نلتقى بنافع بن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله ابن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا - على نحو ما مر بنا - إلى ازارقة ونجدات وصفرية واباضية ، وأسرع الازارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاية بنى أمية ، وتصدى لهم المهلب بن أبى صفرة وقواد آخرون ، ومزقوهم شر ممزق .

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الازارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ومن أهم

خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن على الذى وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا فى خطباتهم نفس الروح التى وصفناها فى أشعارهم ، اذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آيهين بالحياة الدنيا ، انها حياة زائفة وهم يريدون الحياة الخالدة فى الدار الآخرة ، وهم انما يحاربون فى سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التى ضلت فى رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير فى بعض خطبه " ان البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر وهو على الكافرين عقوبة وخزى ، وثقوا بأنكم المستخلفون فى الأرض والعاقبة للمتقين " .

فهم فى رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلة ، وهم المؤمنون حقاً وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم فى الجنة أما قتلى غيرهم ففى النار " .

وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العجلة إليه ، حتى يتخلصوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون فى الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا فى شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن فى خطبهم ، على نحو ما يلقانا

فى خطبة قطرى بن الفجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلمها على هذا النمط :

" أما بعد : فانى أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات .. مع أن امرأ لم يكن منها فى حبرة ، الا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا ، الا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطله غيبة رخاء ، الا هطلت عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وان جانب منها اعذوذب واحلولى أمر عليه منها جانب وأوبى ، وان آتت امرءا من غضارتها ورفاهتها نعماً أرهقته من نوائبها نقماً ، ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها لا حير فى شيئ من زادها إلا التقوى " .

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره ، وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنسيق معانيه ، ومن اشتهر من خطباء الازارقة عبيدة ابن هلال اليشكرى وزيد بن جندب الايادى وعبد رب الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصفرية عمران بن حطان وصالح بن مسرح الذى

كان يعظهم ويقص فيهم قصصاً كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من اثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خرج على الحجاج ، وقتل ، فخلفه شبيب الذى دوخ جيوش الحجاج طويلاً .

ومن قول صالح فى بعض مواعظه :

"أوصيكم بتقوى الله والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة فى الدنيا ترغب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وان كثرة ذكر الموت تخيف العبد من ربه ، حتى يجأر إليه ويستكين له ، وان فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله فى كتابه [ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون] .

وان حب المؤمنين للسبب الذى ينال به كرامة الله ورحمته ، جعلنا الله واياكم من الصادقين الصابرين" .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصفرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظلمة كما يقول ، حاثا لهم ان يلحقوا باخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . وممن اشتهر بن الصفرية بالخطابة الطرماح بن حكيم وشبيل بن عزرة الضبعى والضحاك بن قيس الذى خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة

من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النجدات أما الاباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد اللهر بن يحى الكندى الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين فى سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبى حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمدان ردت الأمر إلى نصابه ، ولابى حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التى ألقاها فى المدينة وهو يستهلمها بالثناء على أبى بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن فى عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، منددا بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج واخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم فى الدنيا وجهادهم فى سبيل الله متعذبين للاستشهاد اذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التى لا تفنى ، بقول متحدثاً عن شبابهم :

" شهاب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر اعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله اليهم فى جوف الليل ، منحية اصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير

جهنم بين أذنيه . موصول بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت والرماح قد أشرعت والسيوف قد انتصبت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاً على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عين من منقار طائر بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معظمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله " .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة اخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل ديوان أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصا بالرماح ، وان تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يبددون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائزة عطلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يرددون أن أباء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون : هى عليهم بواسية إذا انتزعوا منهم ميراثهم عن

الرسول الكريم ، وتدور هذه الأفكار دائماً فى خطابتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجد عمد الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقبته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له :

" أما بعد : أيها الناس فانكم أن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله ، ونحن – أهل البيت – أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان " .

وتتطور الأمور ويقتل الحسين ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول – ﷺ – ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته ، ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حتى آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الوصول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بيت الرسول ، ومن ذلك قول سليمان بن صرد فى إحدى خطبه :

" قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه .. اتخذه الفاسقون غرضاً للنيل .. ألا انهضوا فقد سخط ربكم ولا ترجعوا إلى

الحلائل والابناء حتى يرضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيروا " .

وكان من زعماء التوابين معه عبيد الله بن عبد الله المرى ، وكان خطيباً لا يبارى ، فمضى يعظ الناس ويحرضهم على الانتقاض على الامويين بمثل قوله :

" هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقا على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، أم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم .. وترميلهم اياه بالدم وتجرار هموه على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول - ﷺ - ... ابن أول المسلمين اسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قتله عدوه وخذله وليبه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. الا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين .. وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقبل العثرة .. انا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المسلحين والمارقين] .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى لكل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقاهم المختار الثقفى زاعماً ان ابن الحنفية - على الرغم من تبرئة منه - بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يعد المؤسس الحقيقى لفرقة

الكيسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ، وقد مر بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو واسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعده وصيه والامام المهدى المنتظر ، وكان المختار خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار كيسانياً وكان لسنا فصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة ابراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا فى " خازر " وعصفوا بهم عصفاً ، ولم يلبث مصعب بن الزبير وإلى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة ، وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم - على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يوحى إليه ، مصوراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشيها بالإيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله :

" أما ورب البحار " والنخيل والأشجار ، والمهامة والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، : مهند بتار " فى جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار ولا بعزل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين ورأبت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وادركت بثار النبيين . لم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى " .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعانى التى كان يرددها خطباء الشيعة ، وهى معان ترد إلى بيان حقوق آل البيت فى الخلافة ، وأن على المسلمين ان

ينصرونهم ، وان يأخذوا بثأر من قتله الأمويون منهم .

وفى تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بنى أمية عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن على وابنه يحيى ، وان كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشئ من خطابتهما ، وكذلك هى لم تحتفظ بشيئ من خطابة بنى صوحان : صعصعة وزيد وسيحان وكانوا شيعة وفى الذروة من البيان والفصاحة وقد احتفظ ابن أبى الحديد بكثير من المخاصمات والمحاورات بين الحسن ابن على وعمرو بن العاص وبعض بنى أمية ، وهى مخاصمات يغلب عليها الانتحال ومثلها المخاصمات التى دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبى الحديد والعقد الفريد والمسعودى .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله بن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان معوها بليغاً يعرف .

كيف يخلب الألباب بكلامه، ويستولى على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو فى خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ، وقد إستغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام ، وله مناظره مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه ، وله أيضا خطبه مشهوره خطبها حين جاءه نعى أخيه مصعب وإستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهى تصور رباطة جأش وصدق يقينه وفيها يقول :

«إن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين إنا والله لا نموت حتف أنوفنا ، ولكن قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان والله ما قتل منهم رجل في زحف فى جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذيلايزول سلطانه ، ولايبيد ملكه ، فان تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين »

ولأخيه مصعب خطب مدونه ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة ، ولأمها أسماء مع ابنها عبد الله محاورة طريفة حين حاصره الحجاج فى مكه وتخلى عنه الناس .

٢- خطباء الثورات فى العصر الأموى :

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ ه وقضى عليه .

ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن الاشعث فى ثورته على الحجاج وكان مدرها مفوها ، ومن خطباء ثورته عامر بمن واثله الكنانى وعبد المؤمن بن شبت بن ربعى ، ولا نصل إلى عصر سليمان بن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبه بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضا الجند على متابعته ، ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وكان خطيبا بليغا ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام .

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عسف وكيف أنهم جميعا عطلوازحكامالشرع واستأثروا بالفئ ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أميه «. يتقدمهم الخلفاء » ثم الولاه والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء

باحكام الصنعة فى الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز وزيد والناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية فى خطابته فقال :

ركوب المنابر وثابها ... معن بخطبته مجهر

تريع اليه هوادى الكلام ... إذا ضل خطبته المهذر

تنوع خطابة معاوية :

وخطابته قسمان : قسم سياسة خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب وهو فى السقم الأول يدعو إلى الطاعة ملوحا بما فى يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ ه بالمدينة . وهو فى القسم الثانى ينفر من الدنيا واتلتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ ، وقد إتهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كتاب الوحى وأنه من جلة الصحابة وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدثهم نفوسهم بالخروج عليه ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت و إنتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له

« أيها الناس : إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا

يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شئ وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفانيا بباق ، ألا تعرون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلكحتى تردوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه والوليد بن يزيد خطبة بديسعة يصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلنا أنه إن وفى بما عاهد الله عليه فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه ويقول انه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لايزالون يستوجهون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيدا وتهديدات باستخدام القوة ، ولعلب أحدهم لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق واليا من قبل عبد الملك ، وفيها يقول :

« إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ، إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أغمز تغماز التين ولايقمقع لى بالشنان ، ولقد

قررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة ، أن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها عمودا ،فوجهنى إليكم فأنكم طالت أوضعتم فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسننتم سنن الغى أما والله لألحونكم لحو العصا ولأضربنكم ضرب غرائب الابل .. أما والله لتستقيمن على طريق الحق أولأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده »

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ الغريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم ، وقد زخرت خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يعد فى الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه فى طبقة واحدة ، وإن فضله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ، ولعل من الطريف أن كتب الأدب ، احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويروى أن الحسن البصرى كان يقول عنه أنه يعظ الازارقه ويبطش بطش الجهارين ».

ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى الغى غيا فأجتنبه ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالا بعيدا ».

وكان خالد القسرى خطيبا مفوها ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظن الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقه ، وله خطب كثيرة يحث فيها على طاعة الخلفاء منذرا متوعدا من ينقض حبل الجماعة ، وأكثر فى خطب الجمع من المواعظ ، حتى سمى خطيب الله ، ويروى أنه كان

يخطبيوما فسقطت جرادة على ثوبه ، فقال : « سبحان من الجردة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حازبوا بنى أمية غضبا لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى دالصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ،على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحرة : « يا أهل الشام أهذا قتال من يدافعوا عن دينهم وأن يعزوا به نصر إمامهم »

وقول المهلب بن أبى صفرة فى حث جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخورج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماءكم » . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الفداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق وأن أعداءهم أهل غى وضلال . ».

وكان قواد الفتوح شرقا وغربا وفى بلاد الروم لا يزالون يحثون جنودهم على الإستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يشعل حماستهم ، ويذكى جذوة شجاعتهم وبسالتهم ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلى وقد تهيأ لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول :

« وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق

فقال (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يألون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قتل فى سبيل الله أنه مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فينجزوا موعود ربكم » .

واشتهر فى خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القصرى ونصر بن يسار ، ويلقانا فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس وخطبته فى جنده حين دخلها مشهورة ، ولعل من الخير أن نقثف قليلا عند زياد بن أبيه حتى تمثل تمثلا واضحا ما أصاب الخطابة السياسية فى هذا العصر من نهوض ورقى .

زياد بن أبيه :

ولد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسمية جارية فارسية كانت للحارث بن كلدة الثقفى المشهور بطبه ، ويقال أنه زوجها ثقفيا يسمى عبيدا ، ومن ثم كان يسمى فى بعض الروايات زياد بن عبيد ، ويذهب بعض الرواة إلا أنه إنما ولد على فراش الحارث وأن عبيدا كان عبدا روميا ، ولم يكن ثقفيا ، وما نتقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان بنسبه إلى نفسه مدعيا أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنت أنه لم يولد لرشدة ، وليس بين أيدينا شئ واضح عن نشأته ، ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غزوان قائد عمر فى فتوح الأبلة تسجيل الغنائم وقسمها فى الناس ، مما يدل على اتقانه الكتابة والحساب ، ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم ، ويوفده واليها أبو موسى الأشعرى إلى عمر ، فيعجب بذكائه ولسنه ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعن عجز أم عن خيانة صرفتنى ، فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل زعلى العامة فضل عقلك.

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبد الله بن عامر واليها كاتبا له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولى على البصرة ابن عباس جعله على خاجها ، وأنابه عنه أحيانا وأظهر فى أثناء نيابته له حنكة ، ذلك أن معاوية دس إلى تميم بعض من أفسدها على علي

فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقعه بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه ، ولما فسدت فارس على علي أرسل به إليها واليا عليهما ، فرم الفساد وأصلح الشعث ورأب الصدع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسة فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها، ووعده ومناه ، وخوف قومنا وتوعدهم وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعا ولا حربا ، وفعل مثل ذلك بكرمان ويقال أن أهل فارس مانوا يقولون : « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى النيل والمداراة ».

ولما ملما قتل علي ظل على عهده ولابنه الحسن ، حتى إذا تحولت مقاليد الامور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعدا ، ثم أخذ يتلطف له ووسط لديه المغيرة بن شعبة الثقفى ، ذاكرا مابينهما من الرخم ، وما زال به ، حتى دخل فى طاعته ، وفرح به فرحا عظيما ، إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق ، ولما صار إليه جمع الناس وصعد المنبر وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة ، غير أن كثيرين ظلوا يشكون فى هذا النسب ويتهمونه ، ولم يلبث معاوية أنم ولاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٥ للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات

واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح واليا على العراق جميعه حتى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفساق والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع مع الخراج والشيعة وقصته مع حجر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهنالك لقى حتفه ، على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تعجزه الحيلة ، وقد إتبع سياسة ضرب القبائل بعضها ببعض حتى يشغلهم عنه وعن الدولة ، ومن المحقق أنه كان سياسيا ماهرا بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيبا لا يبارى فى جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كلمه صوغا تهش له الأسماع وتصغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشعبى : « ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسئ إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما » .

وخطبه مثل خطب الحجاج تدور فى موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هى أروع خطبة سياسية خلفها هذا العصر ، و هى الملقبة بالبتراء سميت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تجعل سياسة زياد التى اشتهر بها والتى ردت إلى البصرة أمنها بعد أن عاث فيها الفساق واللصوص واضطرب حبل النظام ، وقد بدأها

بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسمه الله للمسلمين فى كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

« أما بعد : فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الإمور العظام يبينت فيها الصغير ولا ينحاش عنها الكبير ، كأنكم لم تقرؤا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمد الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله وهذه المواخير المنصوبة والضعيفة والمسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير القليل ، ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة وبعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس . أليس كل إمرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لايخاف عاقبة ولا يرجون معادا ما أنتم بالحلماء وقد إتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ».

وعلى هذا النحو أسهل خطبته بتجسيم صور الفساد التى إنتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرع سامعيه بأنهم انتبذوا كتاب الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانية على دار الخلود ،وكأنما عادوا

يجترون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد إنتقل يصور خطته فى حكمهم وما أعده لهم من دروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : (آنج سعد فقد هلك سعيد) أو تستقيم لى قناتكم .. من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه .. وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لا آخذ داعيا بهما إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم إحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكم ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ،ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدى ولسانى ،ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلاضربت عنقه . وقد كانت وبين أقوم إحن جعلتها دبر إذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته ، إنى والله لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا ، حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا أموركم وارعوا على أنفسكم فرب مسوء بقد ومنا سنسره ، ومسرور بقد ومنا

سنسوءه ».

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم، البصرة ، وهو دستور أوضح فيه مواد العقوبة وأنه سيأخذ بالظنه ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرد سيفه لقتل من لا يرعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه ، ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا أن المرأة كانت تبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصا ، وكان الشئ يسقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه فيأخذه وقالوأيضا أن الناس هابوه هيبة لم يهابوه أحدا من الولاة قبله .

وفى نفس هذه الفقرة ما يصور رفق دزياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش وإنما يبطش على الجرم ، أما بعد ذلك فلين رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وأيضا حين يجهرفى ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداؤه ما صانعوه ، ويمضى فى فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ،

فاستوجهواعدلنا وفيئا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولاتشربوا قلوبكم بغضكم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول لكم حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله ، وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى » .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوضونت لحكمهم من قبل ربهم وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية ، وهو يلوح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نثرا ، ولا يلبث أن يهدد من تحدثهم أنفسهم بنقص الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضرب الرقاب .

والخطبة علي هذاالنحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافها ، وهى مقسمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقا ، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توعر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيرا ، وهو فيه يبدع كما يبدع فى خطبه السيسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة

يقال ان عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهى تطرد على هذا السياق :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسن بنعمة الله ومسئ بخذلان الله إياه ولله النعمة على المحسن والحجة على المسئ . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيعطى ما عليه منها ولا يتكثر مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عز وجل ، فاحذركم الله الذى حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة ، قبل أن يصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة ».

وواضح ما فى الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حسن البيان وبراعة الخطاب .

تتمة :

وقد كان هناك إلى جوار هذين النوعين من الخطابة فى العصر الأموى نوعين آخرين نكتفى هنا بالاشارة إليها وهما :

١- خطابة المحافل

٢ - خطابة الوعظ والقصص

إلا أنهما لم يحفلا باهتمام يضاهى الآخرين وإن كان ذلك لا يعنى

فقدانهما للبراعة فى الأسلوب والأداء ، ولولا ضيق المقام لتناولتـ[illegible] بالتفصيل .

وجملة القول :

أن الخطابة قد ازدهرت فى هذا العصر ازدهارا ، لعل العرب لم يعرفوه فى أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وقد علمت بواعث كثيرة على توهج هذه المواهب ، والانفعال الذاتى لقضايا ومشكلات كثيرة ألمت بذلك العصر ، بأن أثرها فى الخطابة حين إذ ، وذلك بسبب خصومات سياسية عنيفة فكان هناك خطباء للخوارج وخطباء للأمويين ، وكل منهم يحاول استمالة الآخرين إليه واستلباب قلوبهم حتى حتى يتسنى استجلاب هممهم وعزائمهم بالتفنن فى البيان ، كما نمت إلى جانب هذه الخطابة السياسية (الحزبية) خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة إذ أخذ أصحابها يعنون بتحبير كلامهم ، وفى المقابل من هذه وتلك ظهرت واحتدمخطابة الوعظ ، والقصص الدينى احتداما شديدا . وقد حرص أصحابها على التمتع بكل وسيلة بيانية كى يؤثروا فى الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ، ثبتوه تثبيتا قويا ، وهو أسلوب نهض على نمط من الإزدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعانى وقد مضوا يعلمون الشباب فى البصرة والكوفة كيف يبرعون فى الخطابة والمناظرة .

الفصل السادس

الخطابة فى العصر العباسى

الخطابة الدينية فى العصر العباسى

حرص خلفاء هذه الدولة خاصة فى المائة الأولى لعهدها على أن يكون شعارهم هو الدين والعمل على اعزازه والجمع بين الولاية والصلاة فأموا الناس فى الصلوات الجامعة كالجمعة والعيدين فكانوا يخرجون فى ابهتم وعليهم بردة النبى صلى الله عليه وسلم فأحبهم الناس ووثقوا بهم ، وهابوا سلطانهم وقد وصف البحترى خروج المتوكل يوم عيد الفطر بقوله :

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا .. لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهت إلى المصلى لابسا .. نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع .. لله لايزهى ولايتكبر

وبقى الخلفاء يمارسون الخطب فى الجمع والأعياد و يبدو على السنة محاكيهم من فصحاء الولاة والأعمال سببه ماكان لها من سابقة من شأن واعتبار .

ومن هنا لم ينل الخطابة الدينية مانال الخطابة السياسية فى العصر العباسى من تدهور وفتور ولكن طرأ عليها تغييرا واسعا من حيث طولها ومن الأفكار التى تحويها ونظرا لقلة الأحداث وهروء الأحوال فى هذا العصر أصبحت الخطبة دينية بحتة تعنى بالدعوة إلى الاستقامة فى السلوك والترغيب فى لالجنة والترهيب من النار ومن ناحية الأسلوب طالت مقدماتها

من صيغ التحميد لله تعالى والصلاة على النبى كما طالت الخطبة أيضا ا كانت عليه فى صدر الإسلام .

وفى العقد الفريد خطبة للخليفة المهدي ظهر فيها أسلوب الوعظ الدينى المقتبس من القرآن الكريم والسنة النبوية يقول فيها بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلىَ الله عليه وسلم :

« عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبران النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لاعهد له ، ولاصلاة لمن لا زكاة له ، إنكم سفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة ، فإن الله - تعالى ذكره - أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداء للمنيبين».

لم يكن الوعظ مقصورا على الخلفاء بل كان منهم ومن غيرهم لأن الوعظ مبدأ دينى سام فرض فى صلاة الجمعة والحج والعيدين وكانسريعة عامة تجب على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلا بمقتضى إلزام المسلمين جميعا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كل بما يستطيعه ، ولذا كالن الوعظ الدينى غرضا خطابيا للخطابة فى كل عصورها الإسلامية .

واشتهر من الخطباء فى العصر العباسى - غير الخلفاء - عدد من

النساك الذين ابتعدوا عن زخرف الحياة ولذاتها ، وكان الخلفاء يدعون هؤلاء الفساق ليعظوهم ، وربما أبكاهم وعظهم ، وكانوا يكافئوهم بالأموال فى بعض الأحيان .

وبهذا نرى الخطابة الدينية جرت فى تيارين مختلفين ، تيار يجرى على ألسنة الخلفاء وتيار يجرى على ألسنة الوعاظ والنساك ، وكل أسلوبه يختلف باختلاف الوعاظ أنفسهم ودرجات ثقافتهم ومقدرتهم على صوغ الكلام .

وكثيرا ماكانت المجالس تعقد ، ويتسابق فيها أصحاب اللسن والبيان فى الإجادة وكثيرا ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية وكلامية ودينية يستخدم فيها كل أساليب الخطب الرائعة من محاولة تأثير، واجتذاب إلى فكرة ، وقد كان أولو السبق فى تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام وامتاز من بينهم بالإجادة والفصاحة عمرو بن عبيد وبشر بن المعتمر ووسط هذه البيئة بيئة الوعاظ والنساك الذين تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة .. إلخ العواصم الإسلامية ، ازدهرت الخطابة الإسلامية وأينعت وانضم إليها الوعظ والقص والتذكير بالآخرة والتخويف من عقابها ، واشتهر من الوعاظ عمرو بن عبيد المعتزلى واعظ المنصور وابن السماك واعظ الرشيد الذى وعظه يوما بقوله « يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار)

فبكى هارون حتى اخضلت لحيته .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون وعظهم دائما من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال الصحابة ومن سبقوهم من الوعاظ وقدأشاعوا في وعظهم الإيمان الشديد بالله ، والثقة الوليدة بأن ما عند الله خير وأبقى .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية قد رزدهرت فى صدر العصر العباسى فإنها أخذت فى الركود والضعف بعد ذلك لأن الرشيد أسن سنة سيئة للخطابة الدينية وهى أن يقوم الخطيب بإلقاء الخطبة مكتوبة بعد أن يكون قد أعدها له آخر ، فقد طلب الرشيد إلى الأصمعى أن يعد لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة كما طلب غير الأصمعى أن يعد خطبة لأخيه المأمون ، وبذلك سن الخلفاء والخطباء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، ومع مرور الزمن أخذوا يندبون عنهم من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، وظهر ذلك جليا فى القرفى الرابع حيث نال الخطابة الدينية ركود وضعف ووجدت كتب أو دواوين يستعملها خطباء المساجد ، واشتهر منها ديوان بن نباتة الذى ظل يحاكى بإخراج دوواوين على صنفه حتى العهد الحديث ، وهى خطب تنظم على حسب الشهر لكل شهر أربع خطب أو خمس ففقدت الخطابة تأثيرها إذ أصبحت بعيدة عن حياة الناس .

وتتلخص أسباب ضعف الخطابة الدينية بعد المائة الأولى من حكم العباسيين فيما يلى :

(١) تثبيت دعائم الدولة وبناء أركانها وعدم الخروج عليها وزوال الخلاف بين العباسيين فيما بينهم فذهب بذلك الكون أعظم دوافع الخطابة وإذ ضعف الداعى إلى الخطابة وقلت الحاجة إليها ضعف أمرها وهان شأنها .

(٢) استعانت الدولة بالجنود من الفرس والترك ممن لا يحسنون النطق بالعربية فكان هؤلاء لايثيرهم القول العربى البليغ ، فذهبت بذلك الخطابة فى الجند حثا لهم على الجهاد فذهب من الخطابة دا ع منأعظم دواعيها .

(٣) الاستعانة بالكتابة بدل الخطابة ، فقد اتسعت موضوعات الكتابة فى هذا العصر وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أوالوالى إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شئ أناب كتابه عن خطابه فأرسل إليه كتابا يقرأه وبذلك استغنى عن الخطابة فى أخص موضوعاتها .

(٤) تعود الخلفاء عن الخطابة أو أنابه غيرهم منابهم فى الصلاة بالناس ، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليدا لخلفائهم ومحاكاة لأمرائهم وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب وقلةاحترامهمله، وبهذا ضعفت الرغبة فى القول .

نماذج للخطابة الدينية فى العصر العباسى :

١ – خطبة المأمون فى يوم الجمعة :

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه ، أؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أوصيكم عباد اللخه ونفسى بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده فإنه لا يسلم إلا من ألقاه وجاه ، وعمل له وأرضاه فاتقوا الله وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى بما يزول ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم واستعدوا للموت فقد أظلكم وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا واعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يدرككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة و النار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الورحدة بقصر المدة .

وإن غائبا يحدوه الحديد آن – الليل والنهار – لجدير بسرعة الاونة وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة .

فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه

التوبة ليسوفها حتّى تهجم عليه منيته ، أغفل مايكون عنها فيا لها حسرة على كل ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، أو تؤديه منيته إلى شقوة . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم لا نبطره نعمة ولانقصر به عن طاعة ربه غفلة ولا يحصل به بعد الموت فزعة ، إنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير .

خطبة المأمون فى عيد الأضحى :

قال بعد أن افتتح خطبته بالتكبير :

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه وعظم حرمة ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه بالذبيح العظيم بنيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ويقوم الأيام المعدودات من النفر ، يوم حرام من أيام عظام و فى شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله فيه إلى مشهده ونزل القرآن العظيم بتعظيمه . قال الله عز وجل (**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق**) فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب أقوالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول (**لن ينال الله لحومها ولا دمائها ولكن يناله التقوى منكم**)

الله الله و فوالله إنه الجد لا اللعب ، والحق لا الكذب وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ، فمن نجا

يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله فى الجنة والشر كله فى النار .

فهاتان خطبتان للمأمون . صاحب الثقافة والمقدرة الخطابية وهما تدوران حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت لا يميز خطبة الجمعة عن خطبة العيد إلا ما أشار به عن العيد ، ثم يعود للتذكير بالآخرة والجزاء .

(٣) خطبة عبد الله بن طاهر :

خطن عند الله بن طاهر وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال : إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الدين جعلهم رعاة ، الدين ونظام المسلمين .

فاستنجدوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين شذوا وتمردوا وشقوا عصا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ومرقوا من الدين وسعوا فى الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون وعدتكم التى بها تظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمركم الله بلباسها غضوا من أبصاركم واخفتوا أصواتكم فى مصافكم وامضوا قدما على بصائركم فازعين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله فإنه يقول

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)

(٤) ومن أقوال الوعاظ :

ما يحكى أن ابن السماك دخل على الرشيد يوما : فبينما هو عنده إذا استقى الرشيد فأتى بقلة ماء ، فقال ابن السماك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، فقال اشرب هناك الله . فلما شربها قال : اسألك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشترى خروجها ؟ قال بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه .

وبعد : فيتضح من هذه النصوص وغيرها أن خطباء العصر العباسي حرصوا على أن يطبعوا كلامهم بالطابع الديني مع الستعانة بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا كما بدت السهولة فى المفردات والسلامة فى التراكيب والجزالة فى الأسلوب . وقد اشتهر كثير من خطباء هذا العصر وكان من أبرزهم : المنصور ، والرشيد والمهدى والأمين والمأمون وآل بيتهم .. وقد قال الجاحظ فى شأن خطباء هذا العصر « لم يكن لهم نظير فى أصالة الرأى وفى تقرير العلم ولا فى قدرة دعاتهم على البيان العجيب والفور البعيد .

ولما كانت الخطابة - كما رأيت عبر دراستنا التاريخية لا تزدهر إلا فيأجواء

معينة فقد أصابتها عوامل الضعف الاضمحلال شكلا وموضوعا فيما تلا هذا العصر من عصور نظرا لأن الخطاب\ة الدينية قد أخذت على عاتقها إشباع الجانب الروحى وأهملت جانبى العملى والعقلى وظهر على الساحة دواوين تحفظ وتردد على أسماع الأمة فى كل مناسبة وإن كان فيها ما فيها من الإسرائيليات والموضوعات والألفاظ المسجوعة سجعا متكلفا يحرص فيه قائله على القوالب اللفظية لا على المعانى الشرعية .

الخطبة الدينية أحكامها وتاريخها

موضوع الخطبة فى الإسلم وميدانه هو نفس الميدان والمجال الذى يعمل فيه الإسلام ، والمجال الذى يعمل فيه الإسلام هو الحياة الأولى والآخرة جميعا ، فليس عمله هو الحديث عن الجنة والنار أوالحياة والموت كتلك الكلمات التى مل الناس سماعها ، وكتلك الخطب المقروءة من بعض الدواوين(١) التى يسمعها الناس فى بعض مساجد القرى و ثم يخرجون لا يدرون ماذا قال خطيبهم إلا حديثا عن الجنة أو النار أو يخرجون وقد حفظوا ما قال لكثرة ما تردد عليهم ، أو كتلك الخطب التى تتناول النوح على الحياة والتخويف بالموت على نحو مفرق ، فإن هذا لا يحصل فى القلوب إيمانا بالله ولا توحيدا ولا تغير معرفة خاصة ولا تذكر بآلائه ولا تبعث النفوس على مخباه جل شأنه والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون وهم لا يدرومن من الخطيب شيئا ، إلا أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلى التراب أجسادهم ، فياليت شعرى أى إيمان حصل بهذا . كما أن موضوع الخطابة فى الإسلام ليس هو الحديث عن هذا الجانب من الحياة ، أوذاك واغفال الآخر .لا . إن موضوع الخطبة فى الإسلام هو تلك المعانى الواسعة المحيطة بالحياة فى الدنيا والآخرة معا المتحدثة عن الدنيا والآخرة والجسم والروح والسلم والحرب والإنسان والجماعة ، وكل المعانى المفصلة لضروب الأحكام

(١) وقد نبهنا على ذلك وخطورته من خلال دراستنا لبعض النماذج انظر الكتاب ص ١٨٥ ، ١٨٦

فى شتى شئون الحياة .

ومن تأمل خطب الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوجيه وذكر صفات الله جل شأنه وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله ربيان نقمه وسرد نعمه التى تحببه إلى خلقه ، وذكر أيام الله والأمر بشكره وذكره ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ، الإسلام والحمد لله واسع جدا ، وفيه مجال للقول الكثير . وبالجملة .. ففى الإسلام نظام شامل لكل مرافق الحياة فيه الأحكام التى تنظم سلوم الناس فى كل ما يصدر عنهم من أعمال وعبادات على تعددها ومعاملات على تنوعها ، وقد استقصى الفقه الإسلامى الشئون الإجتماعية وبينها حتى دخل مع الرجل بيته وحكم بينه وبين زوجته ، فبين ماله عليها وما لها عليه ، وفصل ما عسى أن يقع بينهما من خصومة ، وحكم بين الرجل وولده ، وبينه وبين نفسه حتى بعد مماته بين تقسيم ميراثه و ودفنه وقبره ، ثم أوصى بأيتامه خيرا ، وبين كيف يوصى على أولاده ، وقدر ما يوصى به ، وكيفية الحجر على السفيه كل ذلك لينتظم أمر الحياة ، وليعيش المسلم عيشة منتظمة يتفرغ معها لإعداد ألزام ليوم المعاد ، ولما كانت هذه الأحكام صادرة عن الوحى كان فى إلتزامها والعمل بها سعادة للبشرية أفرادا وجماعات ، وكل ذلك تحقيقا للقصد من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

نذكر هذا الكلام لنبين كيف أن الإسلام شمل كل الحقائق التى يحتاج إليها العالم فى شئونه جميعا ، وصدق الله حيث يقول : (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) وذلك هو موضوع الخطبة والتوجيه فى الإسلام .

مصادر الخطبة الدينية

ينبغى أن يستمد الخطيب عظته ونصحه من النصوص الشرعية والعلوم الكونية والفضائل النفسية والخطابة الإسلامية الرشيدة هى التى تستمد من القرآن الكريم والسنة المحمدية والنصوص الصحيحة وتسير فى ضوئها .

ولنا فى هدى النبى صلى الله عليه وسلم خير قدوة وأفضل توجيه .

فكثيرا ما كان يخطب بالقرآن الكريم ، وفى صحيح مسلم عن أم هاشم بنت حارثة ما أخذت (**ق والقرآن المجيد**) إلا عن لسان رسول الله يقرؤها كل يوم جمعة إذا خطب الناس . وكان عمر يخطب أحيانا بسورة النحل (**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**) فالقرآن الكريم والسنة الشريفة والنصوص الصحيحة وأقوال السلف الصالح هى المصادر التى ينبغى أن تستمد منها الخطابة الرسلامية وتلك هى الروافد الدافقة التى تمد الخطابة فى الإسلام ، وهى الينابيع الصافية التى ينبغى للخطيب أن يجعلها مصدر روائه وغذائه ، ولا غرور فمن معانى القرآن الكريم تنفجر ينابيع الخطابة الصحيحة ، والخطابة المستمدة منه هى وقود النهضة الرشيدة وضياء أمة تريد أن تستقيم على دربها إذ أن أسلوبه فى خلق الضمير الزاكى والفكر الراقى وتقويم السلوك المعوج ، يكفى ويغنى ويشفى ويهدى للتى هى أقوم (**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**) كما أن للقرآن قدرة فذة على قيادة الناس إلى الحق وعلى إستشارة أفكارهم واستضاءة مشاعرهم والسمو بهم إلى ما هو خير ، ولم يكن الوعاظ والمذكرون فى صدر الإسلام يذهبون إلى أبعد من الكتاب والسنة فى توجيهاتهم ونصائحهم ، وكان عماد الخطبة أو

العظة فى عصرهم إما القرآن وإما السنة وإما كلام مستمد منها يدور فى فلكها ولا يخرج من محيطها .

وعندما نتأمل الخطب المروية لنا عن الخلفاء الراشدين نراها محكومة بتلك المعانى التى أشرنا إليها وهى خطب فتحت لنفسها طريق الخلود والبقاء ، فما زالت قائمة يرجع إليها الدعاة حينا بعد حين ليقتبسوا منها ويأنسوا بهديها ويأخذوا منها القدرة ، بل ويتعلموا منها فنون الكلام .

وسنعرض – فيما بعد – فى هذه المذكرة نماذج من هذه الخطب الخالدة نستعين منها – فى سهولة ويسر – أسباب خلودها وبقائها ، والمواطن التى يمكننا أن نستعين فى الأخذ بها لتقوية أساليبنا فى الخطابة والدعوة إلى الله .

وعلى الخطيب أن يحاول جهده فى أن تكون خطبته محكومة بهذا الإطار السابق ، ولا مانع من الاستئناس ببعض القصص القصيرة والصحيحة خاصة للعامة التى تحب هذا النوع من القول وتطير وراء أصحابه ويكون ذلك بحذر وقدر .

وفى القرآن الكريم والسنة المطهرة متسع كبير فى هذا المجال قال سبحانه (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للمؤمنين)(١)

أما المثقفون فى هذا العصر فقد يضيقون أويتبرمون من هذا الإتجاه وإنما هم يحبون العبارة الرقيقة والأداء العالى فى أسلوب محكم نظرا لارتفاع

(١) يوسف : ١١١

مستوى الثقافة وكثرة اطلاع الناس على ما تقذفه المطابع من ألوف الكتب

خطر الإسرائيليات على الخطب الدينية والخطيب :

والذى نوصى به الخطيب أن يكون عماد درسه أو خطبته القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح وعدم الجرى وراء القصص المملة والإسرائيليات الموضوعة ، فإن ذلك موضع نقد شديد وشكوى كثيرة من الجمهور للخطيب ، ثم إنه لا ينبغى ألا يغفل جانب الخطورة التى تعود على المسلمين من رواية الإسرائيليات نظرا لما تحويه من أباطيل وخرافات نسب بعضها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وذلك من حيث أنها تفضى إلى الآتى :

(١) أنها تظهر الإسلام بمظر الدين الذى يعنى : الترهات والأباطيل التى لا أصل لها . كما أنها تصوره فى صورة دين خرافى يعشق الخرافات ويطير ورائها ، ويعنى بأوهام من صنع الخيال.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره بن الجوزى وابن جرير الطبرى فى شأن آدم وداوود عليهما السلام وما هو موجود فى بعض كتب التفسير ، كتفسير القرطبى لآية (الذين يحملون العرش) (١)

وذكره أشياء مضحكة عند تفسيرها لأنها لا تتناسب مع جلالة الآية وسمو معناها وليرجع إليه من شاء

(١) أن رواية مثل هذه الإسرائيليات تكاد تصرف الناس عما هو أهم فى دينهم ودنياهم وتشغلهم بالتوافه والصغائر عن البحث فى الأحكام والتفاصيل المهمة ، وعن التدبر فى آيات القرآن والانتفاع بعبره وعظاته

(١) سورة غافر من الآية : ٧

وقصصه الحق مع أن شغل الناس بمثل هذه الأمور مضيعة للوقت فيما لا فائدة من معرفته وما يعتبر البحث عنه عبثا محضار . انظر مثلا البحث عن طول سفينة نوح وعرضها وارتفاعها وأسماء الحيوانات التى حملت فيها وأسماء أصحاب أهل الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصى موسى من أى الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أخفاها الله عن إبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به المقتول ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه القرآن الكريم ، مما لا فائدة من تعيينه تعود على الناس فى دينهم ولا دنياهم .

(٣) إنها تعطى معلومات عن الكون ونظامه وسننه التى يسير عليها ، ذلك أن كل ما خلقه الله تعالى قائم على سنن وقوانين شرعها الله تعالى وجعلها نظامه الذى لا محيص عنه ولا غ خروج على حدوده يستوى فى هذا عالم الإنسان وعالم الحيوان الأعجم وعالم النبات وعالم الجماد وعالم الكواكب (إنا كل شئ خلقناه بقدر) .

لكن نظرة فيما يرويه بعض المفسرين والواعظين تخيل للشخص أن أموراً تجرى هكذا دون ما سبب ولا مسبب ، كيف ؟ وعلى أى أساس .. لا أحد يدرى ، وهذا ممل جعل الخرافة تعشعش فى يبعض الأذهان وتسير الإرتباط فى بعض القول ، وصور ذلك ما هو موجود فى تفسير ابن الجوزى والطبرى والخازن من أمور لا تخفى على العين البصيرة ، الأمر الذى جعل بعض المشتغلين بالتفسير والوعظ يتخذون من رواية الإسرائيليات مادة يشرحون بها نصوص القرآن الكريم ويرغبون أو يرهبون وذلك مما يشكل مساوئ

وأضرار بنا بعض صورها فيما سبق ونزيد .

(٤) ان مثل هذه الروايات لا تذكر هكذا . وإنما تنسب إلى بعض الصحابة والتابعين ، الأمر الذى يسئ إلى سمعة صحابة أجلاء وتابعين كرام ، ويهز الثقة فيهم ولعل نتيجة ذلك ما كتبه أبو رية فى كتابه (**أضواء على السنة المحمدية**) ونال فيه من أمثال الصحابى أبى هريرة وطعنه فى روايته ولن توثقه مما جعل العلماء يتصدون له ويردون عليه (أنظر السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى لمصطفى السباعى (١) ، والدفاع عن السنة للدكتور محمد أبو شهبة)

(٥) أنها تشوش على عقائد العامة وأفكارهم لعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، والحق أن النفس إن لم يكن لها حصانة من علم صحيح وبصيرة نيرة تميز بها بين الحق والباطل ، كثيرا ما تنطلى عليها تلك الأعاجيب وتسلم فى بساطة ويسر للغرائب ولو كانت أكاذيب ، وكثيرا ما تأخذنى الدهشة مما يرويه على بعض العوام من قصص فيها هدم للسنن الكونية ، بل وهدم لأركان الدين وأحكامه وترويج للفسق والفجور ودعوة إلى أ تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا انظر مثلا إلى هذه القصة القصيرة من كتاب الروض الفائق فى الوعظ والرقائق (حكى أن بعض الأولياء أراد أن يزور صديقا له فذهب إليه وكان عند المزور خادمة حسناء فأعجب بها ذلك الولى الزائر ولم يزل بها حتى وقع عليها فى زمن يسير وأدرك أن صديقه قد ينزل

---

(١) التعريف به إنظر رجال ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجنوب ص ط دار الإعتصام وقد كان ـ رحمه الله مفكرا عبقريا وخطيبا مصقعا ـ وسوف نورد له نموذج من خطبه التى إرتجلها على قبر فقيد الإسلام الأمير شكيب أرسلان ، إنظر ص

به من صب العذاب والأذى ما لم تحمد عقباه ففر هاربا ، ولما عاد صديقه وعلم بما كان عدا خلفه ، فلما أدركه وكان بالقرب من البحر وجده يمشى فوق الماء . فسأله فى ذلك . فقال : ذاك قضاؤه وهذا رضاؤه فسر بذلك وخلى سبيله)

إن العاصى من العامة إذا سمع مثل هذا يعتصم به فى مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذرا فيه قائلا : (إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى مقاما وأحسن حالا) ويزيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لايدرى .

وهكذا كل الحكايات التى لا أصل لها إلا فى خيال هؤلاء القاصين . وفيما يلى عرض للخطبة التأبينية التى ألقاها الدكتور « مصطفى السباعى على قبر الفمرحوم فقيد الإسلام الأمير / شكيب أرسلان فى ساعة دفنه « عليهما رحمة الله وبركاته » فى العاشر من سبتمبر سنة ١٩٤٦ م . وهى خطبة رائعة جديرة بأن تقال فى صاحبها ، كما أنها تعرض جانبا من أربه الراقى وبلاغته الرائعة حين الإرتجال ، مما لا يتوفر إلا للأدباء الكبار إلا بعد طول تدبر وعناء . وإليكم نص الخطبة نقلامن كتاب (عظماؤنا فى التاريخ صفحة ٢٣٠ وما بعدها طبعة المكتب الإسلامى :

خطبة تأبينية على روح / شكيب أرسلان

ألقاها الدكتور / مصطفى السباعى

[عظماؤنا فى التاريخ ص ٢٣٠ وما بعدها]

ط / المكتب الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك أبا غالب ... أمير الجهاد أمير القلم
هتكت برأيك حجب الظلا ... م وثرت إباء إذا الخطب عم
وطوفت فى الأرض تبغى السلا ... م لقومك والحق ممن ظلم
فخضت العمار وصنت الدمار ... وكنت الإمام وكنت العلم
ومازلت تفضح كيد الألى ... بغوا فى البلاد وخانوا الرحم
وترشد قومك للواضحات ... تنير العقول وتزكى الهمم
إلى أن أصاخ لك المسلمو ... ن ولبى نداك أسود الأجم
فآن لجسمك أن يستريح ... وتهجر روحك دنيا الألم
أصبت بدنياك مجد الخلود ... وعند الإله الثواب العمم

إيه أبا غالب يا مالئ الدنيا وشاغل الناس [يا من كنت إلى آخر أيامك فى الحياة تنصح وترشد وتعلم وتوقظ فما عرف فكرك الجمود ولا جسمك الراحة ولا قلمك الركود ، وإنما كنت ثورة جامحة ، تزلزل أركان الإستعمار بما تنفخه فى العرب والمسلمين من آيات النار والنور ، وهى القوة والحياة فكافأك العرب والمسلمون بالحب والإعجاب ، وعاقبك المستعمرون بالتشرد والاغتراب ، أما هؤلاء فقد رأوا بأعينهم أن ما بيتوه لهذه الأمة من كيد أفسدته عليهم الأقدار وأما أنت فقد رأيت فى حياتك ثمرة جهادك !لقد رأيت

أوطان العروبة تحطم القيود وتسير نحو المجد وبلاد الإسلام تسرى فيها عزة عنيفة من اليقظة والوعى والنهوض ، وها أنت يا أبا غالب تدفن فى أرض تحررت من الأجنبى ، فلم يبق له فيها جيش ولا مستشارون ولا سلطة ولا أمر ، ولطالما أعلنت على جيش الاستعمار وسلطانه حربا عوانال وكنت لآمال قومك فى الجلاء حجة وتبيانا ولو قدر لك أن تعود إلينا لحظات لرأيت هذه الجموع تبكيك بكاء الثكلى ، ولرأيت فى بلاد العروبة مناحات ومآتم ، وقد خلف نعيك فى كل عينك دمعة وفى كل قلب حسرة ، وفى كل عين زفرة . فسلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخريين ، وسلام عليك إلى يوم الدين ، يأيها المسرعون بفقيد العروبة والإسلام ، تمهلوا قليلا رويدكم لا تعجلوا ! إنكم لات تحملون على أعناقكم رجلا ، وإنما تحملون جبلا من المفاخر أعيا التاريخ إحصاوها وتسجيلها .

وإنكم لا تدفنون إنسانا كسائر الناس ، إنما تدفنون أمة وتغيبون فى أطباق الثرى آمال الشعوب ، ورجاء أجيال كانت ترى فى الأمير إمامها وعلمها وباعث نهضتها ومبدد ظلمات حياتها .

قفوا يا حملة النعش فما ينبغى للأب الروحى للجيل المؤمن والقائد الأمين للركب المسرع والمعلم الثبت للأمة المتعطشة للحقيقة ، والخصم اللدود للقوى الباغية المستعمرة ، وما ينبغى له أن يدفن هنا ، فى مكان ناء وفى أرض جرداء ، أن مكانه مع أبطالنا الخالدين ، أن مكانه دمشق مع صلاح الدين ! لن يدفن إمام العروبه والإسلام إلا فى عاصمتها ، ولا يستقر زعيم أبطالنا فى تاريخنا الحديث إلا مع زعيم أبطالنا فى تاريخنا القديم ، ليس مكان

الأمير المجاهد إلا بجانب السلطان المجاهد ، هناك يجب أن يرقد جسمه الرقده الأخيره . أما حقيقته ، أما تعاليمه ، أما صرخاته ونداءاته ، أما شكيب أرسلان فإنه لن يموت ولن تنطفئ شعلته ، إن محله فى القلوب وإن مثواه فى النفوس التى انطوت على حبه وسنورث هذا الحب للأجيال المقبله جيلا بعد جيل ، ما دام فى الدنيا عرب ، وفى الدنيا مسلمون.يآل الفقيد وقرابته وبنى عشيرته لستم أنتم الذين فقدتموه فحسب ولستم فى النصيبة وحدكم تبكون وتألمون ، وليس ابنه وحده هو الذى أصيب باليتم من بعده إنما فقدته الرجوله والبطوله والحقيقه ، وإنما أصيب به اليعربيون و المسلمن وأبناء الشرق قاطبه ، وإنمات أصيب باليتم أبناؤه الذين أفاقو فى الحياه عرب ألحانه ، وسحر بيانه ، وآيات جهاده فى قلمه وتبيانه .

نحن الشباب المؤمن فى دنيا العروبه والإسلام .

البكاء ، وفى قلوبنا فتشوا عن اللوعه والآلم ، لنا فاسألوا نحن الذين فقدناه فإلينا العذاء ، ومنا انتظروا الصبر والسلوان وإنا لله وإنا إليه راجعون .

يا روح الفقيد العظيم ! انطلقى اليوم فى دنيا الخلود . فلطالما كنت فى هذه الدنيا حبيسه سجينه ، وغردى ما شئت أن تغردى ! فلطالما كان تغريدك فى دنيانا آلما بعثا وايقاظا ، وانطلقى يا روح الفقيد قى دنيا لا تعرف الظلم ولا البغى ولا المكر ولا العدوان ، وابحثى عن أرواح أبطالنا الخالدين فبلغيهم الشكوى وبثى إليهم الآحزان وانقلى إليهم من دنيانا ما يكون أعجوبة الأعاجيب فى دنياهم ! غردى يا روح الآمير وانطلقى وارتعى ثم رفرفى علينا دائما وأبدا وذكرينا الدين فى آسمى معانيه والوطنيه فى آقوى مظاهرها

والعلم فى أوسع آفاقه ، والوفاء فى أروع آياته ، سلام عليك يا روح الأمير ورحمة الله ورضوانه وبركاته .

الفصل السابع
الخطابة وعلاقتها بالدعوة ومقتضياتها
فى العصر الحديث

حاجة الدعوة إلى لسن ذات طاقات خلاقة جديدة :

إن العالم بما فيه من خزائن وكنوز وثروات ، وحكومات ومخططات لايستطيع أن يقاوم عقيدة الإنسان التى لا تعرف الشك والضعف والحب الذى لا يعرف المادة والأشغال ، والعطف الذى لا يعرف الفوارق والحدود والإخلاص الذى لا يتعلق له بغرض أو منفعة ، والأخلاق التى لا تعرف المساومة ، والخدمة الدؤوب الصادقة التى لا تريد جزاء ولا شكورا .

وفى هذا العصر الذى نشط فيه الباطل وحشد حشوده وجند جنوده وأعد العدة ، فى محاولات عتيدة لقطع الطريق على الحق ، فقد بات لزاما على من حملوا أمانة صنع الجيل العلمى الجديد - ليكون فى غده لسانا للدعوة إلى الله - عز وجل - وجالا يرى فيه من يصدع فيهم بكلمة الله ورسوله صورة صادقة لدعوته ، وواقعا عمليا لصوت القرآن - ضرورة الكشف عن هذه الطاقات المادية والروحية واستثمارها فما أن يتم الكشف عن هذه الطاقات الموهوبة - التى يتوسم فيها الخير وجدوى التربية - والإعداد - إلا وينبغى على المكتشفين من يوهم وضع برامج مخططة ومدروسة لإحياء تلكم الملكات المعطلة وإطلاقها فى كل إتجاه ، لتقول كلمتها فى معركة حياة أو موت ، والبقاء فيها للكلمة الأقوى ، والحج الأعلى والبراهين الأسمى .. ولن يصل المسلم بالعقل الذكى وحدهَ إلي ما يصبو إليه .. ولن يحقق النصر المأمون به، فكم من فلاسفة عباقرة ، كانوا على مرمى حجر من الحقيقة ، لكنهم ضلوا وأضلوا ، وكم من قادة لا ينقصهم الإستعداد ولا التدريب بل كانوا يملكون أسباب النصر ، لكنهم لم يحققوه إليه غائما لأنهم جميعار لم

يستمسكوا بالعروة الوثقى ، لم يصلوا طاقاتهم واستعدادهم بالمدد الذى لاينقطع ، والصباح الذى لا ينفذ زيته ، ولا يخفت ضياؤه أبدا ، ولا تغنى عنه قوى الدنيا مجتمعة . فلقد كان المغول إعصارا فتيا ، إحتل معظم دول أوروبا وأسيا والشرق الإسلامى ، ولكنهم بادوا ، من حيث كانوا قوة مادية بلا روح .

واليابان التى بلغت فى التقدم العلمى شأنا بعيدا ، ما زالت تتلمس الطريق إلى المعرفة التى تجعل لحضارتها قيمة ، وقد قرأنا أخيرا كيف كلف مستشارها الصحفى بالقاهرة ليتعلم اللغة العربية تمهيدا لدراسة " مقدمة ابن خلدون " ونقلها إلى اليابانيين ، وصولا إلى ما فيها من معرفة تجعلها أقدر على تناول حياتها بأسلوب يحقق غايتها البعيدة .

وقد حان الوقت فى عصر الأقمار الصناعية والتلفاز ، والإتصالات اللاسلكية الرهيبة ، وانفتاح العوالم والبلدان التى كانت مغلقة بعضها على بعض طوعا وكرها ، حان الوقت لنفسح الطريق إلى معرفة أوثق بديننا الحنيف عن طريق التعريف به من قبل دعاة خطباء من طراز خاص ، يدركون قيمة الكلمة وأهميتها ويقدرون لها قدرها ومسؤوليتها ، يمثلون - فى هذا - الرائد الذى لا يكذب أهله .

إننا لا نحتاج إلى شرح جديد ، فقد من الله - تعالى - علينا به واضحا جليا ، ولكننا فى حاجة إلى خطباء بمنهج جديد تلائم دعوتهم وكلمتهم روح ، العصر بلسان يتجاوب مع الحياة المندفعة فى رحلة يزامل فيها إنسان العصر ، ليصل به ومعه إلى مرفأ اليقين .

لقد ملكنا زمنا قطعة من أوربا (الأندلس) وكان من الممكن أن تكون - كما قيل بحق - نقطة إرتكاز إلى بقية الأقطار هناك ولكننا فقدنا - يومها - الخطيب الداعية النابه ، الذى سكت صوته ، وغشى حياة الناس ليلته ، فاستشرى الفساد ، وضاع الفردوس فى غفوة الحراس ، فما أحوجنا - فى الخطيب الداعية - إلى وعى كامل بدرس التاريخ وفقيه ، حتى لا يعيد نفسه مرة أخرى .

علاقة الخطابة بالدعوة إلى الله :

كانت الخطابة ولا تزال وستظل هى السر الرئيسى الذى تعبر منه كلمة المبلغين عن الله - تعالى - سبيلها إلى النفس البشرية على إختلاف مشاربها العلمية وقدراتها الفردية ، وقضاياها البيئية ومشكلاتها الإجتماعية والسياسية،وفضلا عن هذا كله كرامتها العقدية . فالخطابة إذا هى أبرز وسيلة من وسائل البلاغ عن الله - عز وجل - ومهمة الخطيب فى الإسلام من أشرف وأخطر المهام فى آن واحد ، فالشرف فيها ينبع من أن الخطيب الداعية يحمل بين جنباته علوم النبوة ، وبالأداء يتحقق منه وظيفتها " فالعلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم ، ومن ثم فلا ينبغى أن يتحدث فى الناس باسم الإسلام إلا عالم متمكن يدرك مسئولية الكلمة ، ويفقه توجيهها ، وكيفية توظيفها باقياسش والمماثلة ليأخذ من ماضى الدعوة لحاضرها ، ومن حاضرها ما يشرق فجر الإسلام فى سماء جيل غدها . وإما خطرها فينبع بداية من اغفال الهمة المنوطة بالخطيب الداعية كداعية وليس كخطيب فحسب ، ثم من عدم عناية

الخطيب الداعيه بما ينبغى أن يتكون لديه من حيله علميه وثقافيه تمكنه من مخاطبة الناس بلغة عصرهم ، ومقدار عقولهم وهذا النوع من الخطباء كثير على الساحه سقطوا وأسقطوا معهم الدعوة وافقدوا العديد من الناس الثقه فيهم ، وما زاك إلا لآنهم آهملوا فى حق أنفسهم قبل أن يهملوا فى حق الله - عز وجل - ودعوته حتى صار حتى صار أكثرهم يتحدث لمجرد الوظيفة ، لا لإحساسه بمسئوليته كداعية حمله الله أمانة الكلمة ، وائتمنه على إبلاغ ميراث خاتم الأنبياء والمرسلين - عليهم جميعا الصلاة والسلام - للناس ، بهدف هدايتهم إلى الله - تعالى وإخراجهم من ظلمات الجهل والضلالة والشرك إلى نور العلم والرشاد والوحدانية .

وإلى جانب ذلك أيضا تبرز الخطورة فى استسغار أنفسهم وهممهم وعلومهم واعتبارها كما مهملا - أو قديما - أو أن الناس قد فقدوا الإحساس أو التأثر بهذا الكلام ، أو - ما يشاع على ألسنة الناس من أن كل الناس يعرفون الحلال والحرام - فما الداعى إذا لأن نتكلم فى الناس ؟

ولكن من قال أن الخطيب يتكلم فى الناس بالحلال والحرام أو أن هذه هى مهمته ؟ إن هذا مهمة الخطيب أو صاحب الإفتاء ، وليس مهمة الخطيب ، وإنما مهمة الخطيب حث الناس على الفضائل ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق . وربط كل ذلك بالعقيدة الصادقة فى الله - عز وجل - وكذا معالجة المشكلات أو الرزائل الأخلاقية ، وذلك بالترهيب منها ، واستظهار خطرها على النفس والدين والمجتمع ، والترغيب فى التغلب على المفاسد والتغلب على شيطان النفس وهواها ، بالحرص على مرضاة الله - تعالى - وانتغاء وجهه الكريم ،

ومحاولة إثارة العواطف نحو الخير باستخدام الطرق العقلية ، والوسائل الفكرية ، وكل هذا إنما باعثة فى الخطيب أمور :

أولها : إحترام الذات الإلهية التى يتحدث فى الناس باسمها وتوقيرها ، بأن يكون صورة عملية لما يتمتع به من صبغة علمية .

ثانيهما : إحترامه للعلم الذى تعلمه ، وتوارثه من خزانة النبوة ونورها واحساسه بمسئوليته العلمية والتعليمية تجاهه ، وكذا مسئوليته العملية وهو ما لا يتحقق قط بكتاب هذا العلم ، بل من الضرورى إذاعته لأن إذاعته هى البرهان العلمى على تحقيق الاحساس بالمسئولية فى الخطيب الداعية ، واثبات انتفاعه هو ذاتيا بما تعلمك ، خوفا وخشية وحبا لله - عز وجل - وتوقيا لجريرة اللعن والطرد من رحمة الله - تعالى - وألسنة اللاعنين بسبب التقصير فى حق توجيههم - فى الدنيا والآخرة . (**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**) .

حب الناس وحب الخير لهم : لأن من يحب الناس ، يحب الخير لهم ، ويحرص شدة الحرص على هدايتهم والأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة والنجاة ، وتحقيق مصالحهم ، والخلاص من كبوتهم النفسية ، والجسدية ، والإجتماعية ، والسلوكية .

وذلك لأن من يجافى الناس ، أو يسئ عشرتهم ، أو يتمنى لهم موارد الهلاك والدمار والشقاء ، هو إنسان مريض لا يصلح أن يكون داعية - فكيف يكون خطيبا ؟ والخطيب كالطبيب - مع الفارق - فكيف لو كان الطبيب مريضا هل

ينتظم على يديه علاج مريض واحد ، أوليس الأولى به أن يداوى نفسه أولا .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى .. طبيب يداوى والطبيب مريض

فالخطيب الداعية لا يصلح أن يكون " أنانيا " ولا " سلبيا " ولا " أمعيا " لأن كل هذه الصفات محل بغض وكره من جميع العقلاء حتى من يتصفون بها لو توقفوا مع أنفسهم للحظة من الزمان .

الخطيب الداعية بين المسئولية والأنانية :

الأنانية مرفوضة فى أفراد المسلمين ، فكيف يقبل مجرد تصدر وجودها فى الخطيب الداعية ؟ ،كيف لو كانت موجودة فعلا ؟

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو المثل الأعلى للمسلمين عامة ، وللدعاة خاصة ، يقول فى حديث صحيح عنه " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

ولقد كان من مظاهر حبه هو نفسه - صلى الله عليه وسلم - وعطفه وشفقته على مجتمعه عامه والمسلمين خاصه ماسجله القران الكريم في ايات عديده منها :

١- قوله تعالى (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**) .

٢- قوله تعالى (**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفا**) .

٣- قوله تعالى (**وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى**

نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآيه ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .

ألا ترى مقدار الحرص والحب الشديد الذى كان يملئ قلبق النبى صلى الله عليه وسلم على الناس وللناس ؟ ألا ترى كم كان انفعال النبى - صلى الله عليه وسلم - لدعوته التى تحمل قضية الإيمان بكل معانيها وافرادها إلى الناس ؟ زلا تستشعر ينابيع الإيمان والخير والعطف والشفقة التى تتفجر وينهمر زلالها من عقيدة وسلوكيات ودعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يرتوى من معينها الرائق كل الناس ، لدرجة أن الله - عز وجل - يترفق به ويشفق عليه من فرط همته وشدته على نفسه ، لأجل هداية الناس وحب الناس ؟

إنظر إليه وهو يعبر لهم عن هذا الحرص والعطف والحب والشفقة فيحفظ لنا التاريخ لدعوته السامية - صلى الله عليه وسلم - أنه قد خطبهم قائلا : " إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتهم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالرحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد " .

كما برز رعتماده - صلى الله عليه وسلم فى بداية أمر الدعوة الجهرية على الخطابة مركزا على ماله من سالف عهد ، وصادق حب ، وصفاء فكر ، ونقاء جوهر بين القوم ، عن طريق الاتصال المباشر بالجماهير ، وهو ما يؤكد على

أهمية الخطابة فى علاقتها بالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ كما يبين من جانب آخر أهمية انخلاع الخطيب الداعية من الأنانية وعبودية الذات ، وذلك بالتفانى فى حب الآخرين حبه لذاته .

فقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (لما نزلت " وأنذر عشيرتك الأقربين " صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر ، يا بنى عدى ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ـ لبطون قريش ـ حتى إجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال ـ أى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ، ما جربنا علي؛ك إلا صدقا .. قال : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، إنى رسول الله إليكم) .

فانظر كيف خاطبهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتدبر أسلوبه ودقة كلامه ، ووجازة لفظه ، ووجاهة فكره ، ورجاحة عقله ، وهكذا ارتبطت الخطابة بالدعوة الإسلامية منذ أول عهدها فى عصرها المكى ذلك لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بذلك الدين فى قوم القول صناعتهم ، والبلاغة جل عنايتهم ، فناداهم بأبلغ الكلام ، وأفصح الأساليب ، وخاطبهم بأروع بيان وخطب فى مجامعهم مؤيدا رسالته ناشرا دعوته ، فكانت الخطابة الوسيلة الأولى للدعوة حيث فرضتها الظروف البيئية للعرب ، التى برعت فى صناعة البيان ، ومن ثم حرصت الدعوة الإسلامية على إستخدام نفس الصناعة فى مجال وسائل التبليغ والنشر .

الخطيب بين المسئولية والسلبية :

ليت الخطباء الدعاة يدركون أن دور الخطابة لا يتوقف عند حد الدور الوظيفى أو بمعنى أوضح " الروتين الوظيفى " وإنما هى مسئولية يتوقف عليها حياة أمة ، وبعثها من ثباتها لتنشط لما يرجى لها من قوة فى الإيمان ، ورسوخ فى اليقين ، وتجلد راستعداد لمواجهة نوائب الحياة ، ويوم الدين .

وهو ما يعنى أن الخطابة لا ولم يقتصر دورها فى الإسلام على جانب معين - لأن انحصارها فى جانب معين نوع من السلبية - وهو أقل درجات السلبية - بل اتسع دورها ليشمل سائر جوانب الحياة الإنسانية - فى كل زمان ومكان - ومن ثم كان منها " الوعظى والحربى والسياسى والقضائى والمحفلى والتكريمى والتأبينى والتهنيئى وما ذاك إلا لشمولية الدين ذاته لكل هذه الأنواع ، وقد سارت الخطابة على هذا النمط الشمولى فى كل عصورها ، حتى جاء العصر الحديث فحجم دور الخطابة الدينية ، واقتصر على الجانب الوعظى " داخل المساجد : فحسب ، وقلص دور الدين وعطلت معظم الملكات التنموية للسان العربى الخطابى ، بسبب إقصاء الدين عن دوائر إختصاصاته التى تتسع لكل مجالات الحياة الإنسانية على عمومها .

وأشد من هذا خطرا ما إذا غ زاد الخطيب الداعية - الطين بلة - بأن يصيب دعوته باللامبالاة ، وصم، الأذن ، وعمى العين ، فيعيش هو فى واد ودعوته فى واد آخر ، وهذا النوع من الخطباء ضرره يحقق ولا نفع يرتجى منه .

إن الإهتمام بأمر المسلمين كله من أصغر شئ فيه إلى أعظم شئ فريضة أوجبها الإسلام على كل مسلم تجاه إخوانه ، فكيف بالحرى من وكل إليهم

أمر توجيه المسلمين والتصدى لمشكلاتهم ، والعمل على صلاح أمر دينهم ودنياهم ؟

إن الإحساس بالمسئولية هو وليد الشعور بدور الكلمة وأهميتها فى حياة المسلمين واعتبار المهمة المنوطة بالداعية الخطيب ذاتية فى الأمة الإسلامية .

لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** " ولجعله صلى الله عليه وسلم ولجعله -صلى الله عليه وسلم- النصيحة أساس الدين وأصلا من أصوله ، إذ يربط برباط وثيق ، دون ما واصل قط بينهما ، فيقول- صلى الله عليه وسلم- " **الدين النصيحة " قلنا لمن يا رسول الله؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولدينه ولأئمة المسلمين وعامتهم** " .

وهو ما يؤكد أن دين الداعية الخطيب -على وجه الخصوص- لا يستقيم قط ما لم يتخلص من كل ألوان السلبية تجاه دعوته لدين الله وشريعته .

ومن ثم فإذا ما أردنا التنبيه على ضرورة إيجابية الداعية الخطيب تجاه دعوته ، والقضاء على مواطن السلبية العديدة التى ألمت بساحة الخطباء فى العصر الحديث ، فإن هذا لن يتحقق قط ما لم ندركأن الإهتمام بالخطابة الدينية فى العصر الحديث - على النحو الذى نأمله ونرجوه - يتم من منطلق الوقوف على دورها فى المجتمع الإسلامى ، ولن تستطيع الخطابة الدينية أن تؤدى دورها إلا إذا قام بها خطباء على مستوى المسئولية والوعى الدينى خطباء دعاة يؤمنون بما يدعون إليه ، ويعملون بما يعلمون ، ويعلمون خطباء لا يبغون بعلمهم إلا وجه الله تعالى ، خطباء يتمتعون بالإيجابية الكاملة فى العلم والعمل معا ، خطباء يحملون لواء الدعوة إلى الله وليسوا

عبئا بسلبيتهم المدمرة .

الخطيب بين المسئولية والأمعية :

إن الخطيب الداعية لابد وأن تكون له مميزاته التى لا يباريه فيها من يتوجه إليهم بالدعوة ، بمعنى أنه ينبغى عليه أن يكون سباقا إلى الخير الذى يدعو إليه الناس ، ويطلب منهم التوجه إليه ، فيكن من مدعويه متبوعا لا تابعا ، قائدا لا مقودا ، متقلدا لا مقلدا .

فالأمعية فى الخطيب لا تتوافق مطلقا وما يراد منه ، أو يرتجى فيه أو يقصد به ، وهو ما يتنافى تماما ومسئوليته تجاه دعوته لله - عز وجل - لأن الأصل فى الخطيب الداعية ، أن يغير مدعويه – أو – مخاطبيه – ويحدث فى نفوسهم إنقلابا من حال التردى إلى حال الترقى ، وليس العكس ومن النقيض إلى النقيض ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الضلال إلى الهداية والرشاد ، ومن الجهل إلى العلم ومن الكسل إلى العمل والجد ... إلخ .

والأمعية فى الخطيب الداعية تنافى هذا الأصل ، بل وتقلبه رأسا على عقب ، فهى تجعل منه إنسانا تافها ، ، تابعا لا قيمة له ولا كيان ، فأنى يحترم أويوقر ، أويؤبه له ، أو به ، أو يقام لكلامه فى الناس مثقال ذرة من وزن أواعتبار ، ألا ترى أنها جزيمة كبرى فى حق الدعوة وانتكاس لمهمتها ، وتدمير لبنيانها وإهدار لشأنها من قريب ؟

إن الإمعية فى الخطيب الداعية – هى السم الزعاف القاتل لشخصيته ثم لدعوته ، كما أنها هى السم الزعاف القاتل لكل من ينتمون إلى ركبها ،

ولذلك يحذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - سائر المسلمين منها وينهاهم عن الوقوع فى حبائلها ، فيقول - صلى الله عليه وسلم - : " **لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تسيئوا** " .

هذا فى شأن سائر أفراد الأمة المسلمة ، فكيف يكون شأن دعاتها وخطبائها إذا ؟

وعدم الإمعية - فى الخطيب الداعية - يعنى تمتعه باستقلالية الذات عن التأثر بسلبيات المجتمع والوقوع فيها ، سواء كانت هذه السلبيات تتعلق بجانب من جوانب العقيدة ، أو الشريعة ، أو الأخلاق التى يترتب عليها جميعا سلوكه الذاتى فى المجتمع الذى يخاطبه بدعوته إلى الله - عز وجل - ليحقق هو فعليته على هذا المجتمع ، ويثبت تأثيره عليه بالإيجاب لا السلب .

بين الخطيب والأديب :

إن الجخطيب الداعية مثل الأديب ، كلاهما يشارك الآخر زو يشابهه فى أمور منها :

١- أن كليهما يعايش الواقع وينقل أفكاره .

٢- أن كلاهما شديد الحساسية بآلام الناس وآمالهم .

٣- أن لدى كليهما مخزون من المعلومات يصبح كامولد الكهربائى مشحون بالطاقة أو كالنحل يستمد الرحيق ، لينقلهإلى الناس شرابا طهورا .

٤- أن كليهما بالنسبة للواقع الإجتماى كالمرآة تعكس الضوء .

ورغم ما بينهما من مماثلة فى الأمور سالفة الذكر إلا أن لكل واحد منهما

خصائص يفارق فيها الآخر ، وهذا الفارق قد يكون واضحا إذا دققنا النظر لوقت قصير : فربما حلس الكاتب على حافة النهر ، أوفى ظل شجرة خضراء ، يسجل أفكاره ، فى جو يوحى بالانطلاق والحرية ، ثم يقدم هذه الأفكار للناس ، بالواسطة ، ويقرأالجمهور أفكاره مكتوبة ، لكنهم لا يشاهدونه ، وقد لا يشاهدونه أبدا ، وربما شاهدوهمن البعد عبرأجهزة "التلفاز " أو ربما شاهدوا أفكارا مترجمة علميا " ممثلة " عبر الأجهزة الرعلامية المختلفة " السينما ، المسرح ، الفيديو ، التلفاز " .

والأهم من هذا كله أن الأديب لا يكتب إلا حين يعتدل مزاجه ، بالإضافة إلى أنه يخاطب جمهور متقارب المستويات على نحو ما .

فأين هذا من الخطيب الذى يواجه الناس فعلا .. متحملا تبعة هذه المواجهه المستمرة بكل أعبائها وما يترتب عليها من تأثير فى حياته هذا التأثير الذى تحدث عنه " عبد الملك بن مروان " فقد كان أخوف ما يخافه مواجهة الناس من فوق المنبر ، وهو ما أسرع بالمشيب إليه ، ثم إن جمهور الداعيه مختلف النزعات والمشارب والفكر والغاية . وهو مع ذلك مطالب بمخاطبته للقوم بلغة يفهمها الجميع ، ليحقق النصر فى معركة متعددة الجهات .

كما أن الخطيب الداعيه محكوم بأهداف وقواعد الشرع وأصوله ولابد أن يجيئ تحركه فى الإطار الإسلامى ، وصوره حية لما يدعو الناس إليه . فإذا ما تحقق فيه هذا الذى ذكرناه فهو بلا شك يصير زعامة دينيه لها خطرها فى مواجهة التحديات والفساد .

وإذا كان الداعيه فى أذهان الناس يمثل القيد الضاغط ، ومن ثم يتعرض

لمقاومة عنيفة منهم ، فأنه يحتوى هذه المقاومه لصالح الدعوة أو هكذا يجب أن يكون .

وإذا كان ما يمكن أن يضرب به المثل على الأديب أنه كالنغم العذب الذى يشجى السامعين ويجذب انتباههم ، فإن الخطيب يمثل الدائن الذى يطالب لمدين بالسداد ، والذى يطرق على الناس أبوابهم ليؤيدوا ما عليهم من طاعات (ذكوات وصدقات) لله تعالى .

ولهذا تشتد القبضة عليه ، وتتكاتف قوى الحقد والكره والبغض من أصحاب الأهواء والميول الخاصة ، والأغراض زالدنيئة من ذوى الطباع الخبيثة ، والقلوب القاسية ، والأرواح والأمزجة الفاسدة والسلوكيات الشيطانية ، على مقاومة الخطيب الداعية الناجح ، الذى يدير فى مواجهة هؤلاء القساة ، معركة يخوضها بنجاح يحقق به سعادة الفرد والمجتمع .

بل إن بعض البرامج الإعلامية إن يكن أغلبها – تمهد السبيل أمام أفكار الكاتب – الأديب – وتعمل على نشر أفكاره ، وأهوائه وخيالاته .

صورة الخطيب الداعية والأديب فى الإعلام المعاصر :

بينما الداعية يخاطب الناس على غير ما تشتهيه أنفسهم ، فتراهم يتثاقلون فى المجئ إليه والمثول للإستماع منه بين يديه ، وإذا ما جلسوا إليه أعرضوا بقلوبهم عنه ولووا رؤوسهم ، أو طأطئوا رؤوسهم ، ومنهم من يشبع نفسه نوما صامل عنه كل ممتلكاته ، فإذا ما فتئ ينتهى من كلامه ثم من صلاته ، ولوا عنه مدبرين سراعا ، وكأنهم كانوا فى أسر أوحبس إشتد عليهم قيده ، وطال إنتظارهم للخلاص منه ، وماذاك إلا لأنه يخاطب أفرادا – أو جمهورا

جاء إليه من بيت ، ومن قبل أسرة هيأت له الجلوس أمام "التليفزيون" ساعات رأى فيها :

١ - الفضيلة عابة رالرذيلة ضاحكة مرحة

٢- صورة المحب الذليل راكعا ساجدا أمام محبوبته يجأر بعبوديته لها استجلابا لرضاها.

٣- مدرس العربى والدين والمأذون - الذى يلبس ثوب رجل المنمبر - بلب وشيخ الجامع - كما يقولون - فى صورة هزيلة منفرة سافرة ، ينفر منها الشاب والفتاة ، والكبير والصغير - لأنه لا يريد أن ابنه على هذه الصورة الهزيلة التى يصور الإعلام عليها رجل المسجد أو شيخ المسجد ، كالشيخ "علام " وقس " " سلامة " والشيخ " هاشم " والشيخ " محفوظ " .. حتى لا يكون مثله مثار للسخرية ، هذا فى الوقت الذى يمجد فيه شخصية الطبيب والمحامى ووكيل النيابة والقاضى ورجل الأعمال ، والبلطجى الظالم ، والفاجر البغى ، والمليونير الثرى ، ولكن ماذا بعد ؟

إنها الأسرة المخدوعة التى يكذب عليها أديب - فرنسى - حين يدعوها إلى الحياء .

وهو نفسه الذى يرميها بأشكال الملابس ، وصور التبذل التى لاتبقى فى النفوس حياء .. كما أنه هو - أيضا - الذى حول انتباه الشباب ليتركز على نجوم الكرة ، ونجوم الفن ، بينما تندب الدعوة - ورجالها - حظها العاثر .

وإذا كنا نطالب المسئولين عن الإعلام وأجهزته المتعددة فى العالم الإسلامى دائما بضرورة المزيد من العناية بالدعوة ، وإفساح المجال لها لتعبر عن

نفسها عن طريق مسئولين متخصصين فيها ، يقدرون للكلمة قيمتها ومسئوليتها ، فإن ذلك لا ينبغى أن ينسينا – بحال – دوز المجتمع نفسه فى التمكين لهذه الأجهزة كى تقوم بدورها بل ودور المجالس التشريعية فى العالم الإسلامى والتى سمحت بدخول بلاء ما يسمى " بالدش " إلى البلاد الإسلامية ، وفيه على الدين والأخلاق والتربية ما فيه مما يضيق المقام بحصره .

الخطيب الداعية والمجتمع :

إن بعضنا مصاب بعقدة الحاكم الذى يحمله وحده مسئولية الدعوة والإبلاغ وبالفعل قد يكون هو المسئول الأول .. ولكن .. واجب المجتمع يبقى حتميا ، لأن التغيير يبدأ من القاع لا القمة حال البناء ، ويبدأ من القمة إلى القاع حال الهدم ، ونحن نريد البناء لا الهدم – وإن كان غيرنا يريد عكس ما نريد فعلينا إذا أن نبدأ من القاع ، ومن ثم فإن على المجتمع أن يغير نظرته وتقديره للخطيب الداعية ولدعوته أو بمعنى أدق – للدعوة والدعاة – الذين يلقون منه عنتا ، وسخرية ، واتهامات بالتقصير بينما الناقد نفسه يقدم أذكى أبنائه للطب والهندسة والشرطة والحقوق ، ثم يبعث أضعفهم إلى الكليات الدينيسة أو كما هى فى تصورهم – الكليات الدونية – حتى يكون آخر الدواء الكى .

فمن أين تأتى الدعوة بامممتازين من الدعاة ، وقد ولد الآباء فيهم عقدة الدونية عن إخوانهم وأخواتهم ؟ من أين تأتى الدعوة بالممتازين وصورة الرجل الدعوة مشوهة مهينة فى المجتمع وفى وسائل الإعلام ؟

من أين تأتى الدعوة بالممتازين وأهلها متهمون بالقصور والتقصير فى الوقت الذى هم محبوسون عن آداء الكلمة فى حرية وأمانة وإحساس بمسئولية توجيهها ؟

من أين تأتى الدعوة بالممتازين من الدعاة وأنت أيها الناقد المتفتق الغيور على دينك ودعوتك بولدك الذكى فلا ترصد لها ؟ كيف تطالب بإصلاح وضع أنت صانعه، وواضع أسسه فى البيت ؟

مركز الإمام الخطيب فى الناس وخطورته :

قال أحد العلماء المتخصصين : " إن مسئولية الدعاة أمام الله وأمام الناس جسيمة إن أحسنوا فيها كما أمر الله رفعتهم إلى عليين ، وإن أساؤوا أنزلتهم إلى درك الأسفلين ، فهم خلفاء الله فى إبلاغ دينه وورثة رسله فى أداء أمانتهم فى العلم الذى ورثوه والنور الذى حملوه ، وجنة الناس أو نارهم بين فَكيهم ، فإن سنوا لهم سنن الخير فلهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف ".

فالوعظ أو الدعوة بوجه عام أجل وظائف الحياة إنها العمل الذى يرتقى بصاحبه إلى أسمى المراتب لو نهض به على الوجه الأكمل ، إنها وظيفة الرسل وهم صفوة البشر وأعلام الهدى ، وأيما عمل تعتز الأمة الإسلامية به وتعلق كبار الآمال عليه هو دون الدعوة شأنا وأقل منها خطرا .

إن رسالة الإمام الخطيب إنما تعنى القيام على شأن كل مسلم يرتاد المسجد فيعود منه بغاية ، وفى الحقيقة إنه المربى والمهذب والرائد إذا قيس بجهد الداعى هين ، متى توفر له من الكمال والتوفيق ما يرجى منه .

إن الذين تنوط بهم مهمة الإمامة والخطابة إنما تلقى على كواهلهم أحمالا ثقيلة من جهودهم المضنية وغايات نبيلة .

إن نظرة إلى الذين ينضرون وجوههم باقصد إلى بيوت الله وإلى ما تحمله صدورهم وقلوبهم من معانى وأحاسيس تفصح عن الخطر العظيم الذى يناط بالواعظ أو الداعى ، إنه طبيب هؤلاء جميعا على إختلاف منازعهم وتباين

حاجاتهم ، فالمسلم الذى يسعى إلى المسجد قد يحمل فى صدره هما وحزنا من العيش ونكد الدنيا ، فهو يلتمس من الداعى مع أداء فرض الله وسائل من السلوى وأفانين من العزاء يعود بها فى صبر ورضا وقرة عين ، وقد كون من التجار الذين يطففون الكيل والميزان ويغلون السعر ويحبسون السلعة وما نخال الداعى الموفق إلا متسللا إلى دخائل نفسه يستل منها الخيانة والجشع وينتهل منها الإسراف فى الكسب الحرام .

وقد يكون ممن خلطرا عملا صالحا وآخر سيئا وليس بينه وبين التمحص للخير والتوفر عليه إلا أن يصغ إلى كلمات ذات إشراق تضئ نفسا حائرة بين الخير والشر مترنحة بين كأسين يفصح له الداعى عن حلاوة والحدة ومرارة الأخرى .

وفى الذاهبين إلى بيوت الله فريق يرءون الناس ولا يخلصون العبادة لوجه الله تعالى ، وبتوفيق الداعى المؤمن اللبق تنقية للمرائى ترده إلى صراط مستقيم .

ومنهم فريق تحيا فى المساجد أجسامهم وترى على بسطها ذواتهم لكن أرواحهم هائمة خارج المسجد تفكر فى شئون الدنيا وتغرق فيها حينا وتتلظى بنار الحقد على الناس حينا وتدبر أساليب من المكر للجار أو لصديق أو الزميل حينا ، وبتوفيق الداعى المؤمن تخلص هذه النفوس من أسر الدنيا وغل الحقد وشر المكر .

وفى هؤلاء بخلاء أشحة نفوسهم يؤدون الفرد والنافلة ، لكنهم عبيد الدرهم والدينار ، ورب موعظة نافذة ذات بلاغة وهدى تشق مسامع البخيل وتنفذ

إلى قلبه العليل فيفئ إلى رشده ، ويبرأمن دائه .

وبالجملة فإن الناس مختلفون فى الخلجات والمشاعر والشئون والخواطر والغايات والمشاكل والعقول والمدارك ، والمسلمون الذين يغشون المساجد أي تنشر عليهم عظة الخطيب فى المحافل والمجالس مختلفون أشد الإختلاف في كل ملابساتهم ، وكل واحد منهم ينظر إلى الداعى بعين ويسمح منه بأذن ويفهم منه بعقول ، والداعى الموفق أستاذ هؤلاء ورائدهم وحكيمهم وهاديهم وطبيبهم الذى يستحق لقب الإمام الجليس " من أدى لهؤلاء جميعًا غاياتهم أو كاد ووجد كل منهم رافضدا من عطائه أو على الأقل نال أكثر مما يرنو به ببصيرته حين يستمع إليه ويتلقى الحكمة والموعظة منه .

ولا شك أننا بهذا نقدر الجهد الكبير الذى ينبغى على الإمام القيام به مسجده أنه أولا : مطالب بأن يعرض على الناس عقله كل أسبوع مرة فى خطبة الجمعة أمام جمهور أغلبه ثابت يسمعه بانتظام ويعى ما يقول كل مرة ، وهو مطالب باستمرار بالتجديد ، وهو فى تجديده أحد رجلين :

١- رما أن يركز خطبته على سلبيات المجتمع أوسلبيات الحياة فيقف على المنبر ناقدا لا ترى عينه إلا الخطأ ولا تقع إلا على نقط الضعف فيصيغ خطابته بصيغة قاتمة من اليأس ، ويلجأ إلى أسلوب من النقد العنيف ينعكس عليه وهديرا معاديا لما حوله ، ويقوده هذا إلى نوع من الإنعزال الفكرى غير المتوازن ، وقد يستطيع الإمام أن يجتذب أنظار بعض الناس

بعض الوقت ولكن هذا سيجعله أسير هذا الأسلوب .

٢- **وإما أن يهتم ببناء النفوس وتأكيد الإيجابيات فى داخل الفرد والأسرة والمجتمع والكيان الإسلامى ، وحديث الإيجابيات بطبيعته يحتاج منه إلى** عناء أكثر كما أن دراسته للمجتمع الإسلامى الأول على عهد النبى صلى الله عليه وسلم والذين جاءوا من بعده وساروا على هديه بإحسان يحتاج منه إلى فتح آفاق العمل وتوجيه أذهان المسلمين إليها بحيث يحسون معه أنهم يسيرون على الطريق الصاعد عالى آمالهم ، وهو فى تحذيره من الأخطاء والإنحرافات يمسها كما يمس الطبيب داء المريض ، مع التشخيص علاج وأمل فى الشفاء ، وبين عينيه قوله تعالى على لسان يعقوب (**يا بنى اذهبوا وتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**) يوسف : ٨٧

والإمام القادر على إيجاد هذه الصلة بينه وبين المصلين يجعل المسجد محببا إلى قلوبهم ويشجعهم على إحضار أبنائهم معهم وتصبح صلاة الجمعة لقاءا علميا يتحقق به قول الله تعالى : (**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**) المجادلة : ١١

ولقد قرب القرآن الدعاة إلى الله ، والواعظين الناس هم خير طوائف هذه الأمة (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**) فعلق الخيرية على خاصية الزمر والنهى المقرونين بالإيمان

وتلك هى مهمة الأئمة والوعاظ ، بل هناك ما أصرح من هذا فى إثبات الكمال والامتياز .

قال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين) فصلت الآية : ٣٣

فالله سبحانه وتعالى ينكر أن يكون هناك من هو أطيب حديثا من الداعين إلى الله العاملين بما يدعون الناس إليه كما أثبت كتاب الله الإشادة بهؤلاء النفر المضطاعين بمهمة الأمر والنهى فقال (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) الأعراف : ١٨١

قيل : وهم العلماء والدعاة إلى الدين كما ذكره النسفى فى تفسيره والزمخشرى فى كتابه ، ومما نلحظه فى هذه الآية أن هؤلاء بقيامهم بوظيفة الدعوة والهداية إلى الحق هم الأمة بكل مقوماتها فلم يطلق القرآن عليهم وصف النفر أو الأشخاص أو القوم ولكنه سماهم أمة فهم سياج عزتها وصمام أمنها وهداة طريقها وعنوان استقامتها بل هم ميزانها الضابط لتصرفاتها ، ومهما برز من خلل أسرعوا فأصلحوه ، أو انحراف بادروا فقوموه أوخير وبر أعلنوا شرعيته وسددوه ، وتلك سنة القرآن فى الشجعان فى الحق (ولتكن منكم أمة) (وممن خلقنا أمة) ومع أن خليله إبراهيم كان فرادا علما واحدا لكن سماه الله أمة (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) النحل : ١٢٠

وهكذا كل من أشفق على أمته ووعظها وأمرها ونهاهاوسهر على صونها من الموبقات وارشادها لسبيل الخيرات كان هو ممثلا لهذه الأمة (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ولا عجب فإن تكوين الدعاة يعنى تكوين الأمة . فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين ، وأثر الرجل العبقرى فيمن حوله كأثر المطر فى الأرض والموات أو الشعلع فى المكان المتأنق .

وما تاريخ العالم إلا صفائح لنفر من الناس لمعت أسماؤهم فى شتى الآفاق بينما استخفت ألوف مؤلفة من العامة والدهماء ومن هنا فإنى أرى إذا كنا نريد لديننا قيام نهضة ناجحة ، وإذا كنا ننوى - بحق - القيام بعبء المهمة الملقاة على عاتقنا نحو هذا الدين الحنيف .

نرى أن تعد - على عجل - جماعات من الدعاة والوعاظ والمرشدين المدربين المخلصين ينتشرون فى أقطار العالم الإسلامى لينشروا تعاليم دينهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ويبلغونها للناس كما أمرهم رب العالمين - وطريقة إعدادهم سنعرفها فيما بعد وينظفوا ما علق به من خرافات ويردوا عنه كيد خصومه ومكر أعدائه ويزيلوا من طريقه الحواجز التى شعبت أهله وقسمتهم إلى طوائف ومذاهب وجعلت كل حزب بما لديهم فرحون .

الإسلام اليوم فى أمس الحاجة رلى رجالات متجردة تهب حياتها لله ، وتجعل مماتها فيه مناسبة للإمام الأعظم والقدوة الحسنة والأسوة الطيبة

الذى نزل فيه قوله تعالى (**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العلمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين**) من سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

الفصل الثامن

إعداد الخطبة والخطيب
ومقوماتها فى الإسلام

إعداد الخطبة والخطيب

تمهيد :

من المهم جدا أن يعد الإمام خطبته ويحضر موضوعه حتى يكون كلامه مركزا ومنظما ، فيفيد جمهوره ويرضى ضميره ، ويحاول أن يكون موضوع الساعة ومشكلة الأسبوع حتى يربط بين الدين والحياة ، يفكر فى موضوعها ويرتب عناصرها فى نقاط ، ثم يشرح تلك النقاط مسندا على القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأقوال السلف من الأئمة والصالحين وأعمالهم ، ويستخلص النتائج التى تناسب الظروف الراهنة والأحوال الطارئة وبذلك يشد انتباه المصلين إليه ويجعلهم ينتظرون موعد خطبة الجمعة بفارغ الصبر ، فيؤمه الناس ويقصده الجماهير من كل مكان مما هو معروف من سيرة بعض الدعاة فى ماضينا وخاضرنا .

أما إذا لم يعد خطيب الجمعة موضوعه ، بدا وكل الدلائل تشير إلى أنه شارد الذهن مشتت الفكر ، يشرق ويغرب ، ويأتى بأفكار من هنا وهناك ، وبكلام أكثره غير متساو يشيع فيه التناقض والاضطراب وكثيرا ما ينسى شيئا وتغيب عنه أشياء ، فيكرر نفسه ، ويطول الكلام ويمضى الزمن بدون جدوى ويدب إلى السامعين الملل والتذمر ، وكل ذلك نتيجة إعتماد الخطيب على الكلام المرتجل الذى قد يخطر على بال صاحبه فى اللحظة والتو دون سابق تحضير .

الذاتية الفكرية للخطيب ودورها فى إعداد الخطبة :

وإذا لم يكن من إعداد الخطبة بد فكيف نعدها ؟

ذلك ما يفصله الآتى :

هب أننى مقدم على الحديث مع مسئول كبير لى عنده حاجة ، **فماذا أفعل ؟**

إنه على - والحالة هذه - عدة أمور :

١ - أن أستبين الموضوع الذى سأتكلم به إليه وأحدد غايتى منه تحديدا كاملا .

٢- أن أرتب مقدمات الحديث وأساليب النقاش مستعدا للرد على كل ملاحظة يمكن أن تثار .

٣- أن أكون مرنا ولبقا فى كل ما يوجه إلى من كلمة أو رأى معارض .

٤- أن أستعد بالأسلوب الشيق السهل والكلمات ذات المعنى الأكثر تعبيرا عن الفكرة .

وهكذا ،وعلى ضوء هذا من الممكن أن تعد الخطبة ، وأنه من الخير دائما أن يخلو الإنسان إلى نفسه قبل الخطابة أو الكلام ، ثم يذهب فى هدوء يتصور نفسه قائما فى الموقف الذى سيكون فيه ، ثم يشحذ عقله ومواهبه لمواجهة هذا الموقف واحتمالاته ، إن هذا تماما " كالبروفة " التى يستعد بها الممثلون قبل الدخول إلى المسرح فبقدر إتقان الممثل لدوره بقدر نجاحه .

كذلك بقدر إتقان أساليب الخطابة والإستعداد لها والمران عليها فى " "البروفات " مرانا كافيا يكون النجاح المرجو .

الخطيب الداعية و معايشته للواقع :

على الخطيب أن ينظر فيما حوله من الأمور المهمة و الأحداثَ اليومية التى تشغل الناس فى أحاديثهم ، و تدور على ألسنتهم ، و لها آثار بينة بينهم ، ثم يتخير من هذه الحوادث أجلها ، و يجعلها موضوع خطبته و مدار عظمته ، ثم يستحضر ما ورد من الآيات و الأحاديث الصحيحة فى الموضوع الذى اختاره ، و يفكر إن كان موضوع التنفير من الرذيلة فى الأضرار التى تنشأ عنها و يتوسع فى فهم هذه الأضرار .

و يستحضر الألفاظ و الأساليب التى تخص موضوع خطبته ، فإن كان موضوعه مثلاً التنفير من شرب الخمر يفكر فى الأضرار الصحية و المالية و الخلقية و الإجتماعية فوق ما أعد الله من العقاب لشارب الخمر ، و إن كان موضوعه دعوة إلى عمل نافع .

يفكر فى آثاره الجليلة و منافعه الجزيلة فى الدنيا و ما أعده الله فى الآخرة من النعيم لفاعله .

فإذا أراد الكلام فى حث الناس على تكوين جمعية للبر بالفقراء ، فكر فى آثار هذا العمل فى نفوس الفقراء و فى معيشتهم و حالتهم الإجتماعية .

و فى هذا أيضاً يصرفهم عن التفكير فى سلب أموال الناس و إقلاق راحتهم ، فتستقر النفوس و يستتب الآمن و تصفو الحياة و يفكر فى الثناء الذى تنطق به الألسن على هؤلاء الخيرين ، و الذكر للإنسان عمر ثان .

ثم يفكر فى أن هذا العمل يجعل الأغنياء و الفقراء متحابين تشيع بينهم المودة و المحبة ، متضامنين يشعر كل واحد منهم بحاجته للآخر ، و يتذكر ما أعده الله للمحسنين من جزيل الثواب فى الدنيا و الآخرة .

و ليكن تفكيره فى جو من الهدوء و صفاء النفس و طهارة القلب و النية الصادقة و الإخلاص فى الدعوة إلى الله و ما أجعله - قبل التفكير - أن يطهر قلبه و لسانه بقراءة ما تيسر من كتاب الله و يستلهمه المعونة و التوفيق .

و لا ينتظر الخطيب من الناس ثناءاً و لا شكراً ، و لا يؤمن منهم بل أجره على الله رب العالمين ، و لا يأبه للحاقدين و الحساد بل يسير فى طريقه داعياً إلى الله ناصحاً لعباده ، قدوته أمام الخطباء ﷺ الذى نزل على لسانه ﴿ قُل لَا أَسأَلُكُم عَلَيه مِن أَجر إِن هُوَ إِلَّا عَلَى رَب العَالَمِين ﴾ .

الهيكل العام للخطبة :

و بهذا نرى أن هناك أركاناً ثلاثة لابد للخطيب من رعايتها :

١ - موضوع الخطبة ، أى « عنوانها » .

٢ - المادة العلمية التى تقوم عليها الخطبة .

٣ - صياغتها النهائية .

و لتسهيل الأمر عليه فإنه ينبغى له أن يقسم الخطبة إلى عناصر و فقرات مترابطة ، ثم يستحضر هذه العناصر و يستحضر فى نفسه أساليبها و العبارات التى تؤدى بها .

و يجب على الخطيب أن يجعل كلامه فى الخطبة الثانية امتداداً لمضمون الخطبة الأولى فى عبارات موجزة و أسلوب سهل .

و من العيب أن يلزم الخطيب فى الخطبة الثانية خطبة يكررها كل أسبوع لا يحيد عنها و لا فائدة للناس بها ،

حتى أن البعض تعود أن يقرأ على الناس عبارات ملوا سماعها و حفظوها من كثرة التكرار ، و تركوا التفكير فيها .

أما إذا شرح الموضوع الذى يريد الكلام فيه فى الخطبة الأولى و رأى أنه لا مجال فى الثانية لجديد يضاف .

فإننا نرى الأكتفاء فى الخطبة الثانية بالديباجة التى تضمن الثناء على الله ثم الدعاء المطلوب للمؤمنين و المؤمنات .

و إذا كنا قد تحدثنا فيما سبق عن إعداد الخطبة فإنه لابد من الحديث عن إعداد الخطيب ، لأن الخطبة الجيدة لا يستطيع أن يعدها إلا من أعد لها إعداداً جيداً لحمل مسئولية الكلمة و إدراك قيمتها و أهميتها و استشعر خطورتها و هو ما ستكشف عنه بعون الله تعالى فيما يلى :

إعداد الخطيب الداعية

من أهم موضوعات الخطابة « إعداد الخطيب الداعية » .

هذا المرسل للرسالة كما يقول علماء الإتصال له أهميته و خطورته فى تبليغ الرسالة « إن أحسن إعداده » كان مبلغاً ناجحاً ، و إن أسئ إعداده كان ضرره أكثر من نفعه .

و يلحظ القارئ أننى ذكرت الخطيب الداعية بهذا التحديد ، ذلك لأن هناك الكثير من الخطباء الذين تتوافر فيهم مقومات الخطيب لم تكن لخطبتهم ثمرة مرجوة كما هو مطلوب للخطيب الذى يحس الرسالة بصدق و إخلاص .

لهذا أردت بتحديد « الخطيب الداعية » أى الخطيب الذى تجرى العوة فى عروقه و دمه كما كان الأنبياء و الدعاة المخلصون من أمة الإسلام .

يقول أحد العلماء : أن الداعية غير الخطيب ، الخطيب خطيب و كفى .

و الداعية مؤمن بفكرة « يدعو إليها بالكتابة » و الخطابة و الحديث العادى ، و العمل الجدى فى سيرته الخاصة و العامة ، و يكن ما يستطيع من وسائل الدعاية .

فهو كاتب و خطيب و محدث و قدوة يؤثر فى الناس بعلمه و شخصه ..

و الداعية قائد فى محيطه ، و سياسى فى بيئته و زعيم لفكرته و من ينبع فى ناحيته .

و كل هذا لا ينهض الخطابة وحدها بحقوقه فلابد له من التأثير النفسى ، و الهيمنة الروحية ، و الإتصال بالله تعالى و استعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ و أحوال الناس .

هذا هو الداعية الصادق ، تحس إيمانه بدعوته فى النظرة و الحركة و الإشارة كما كان يفعل مصعب بن الزبير فيما سبق من الحديث .

و فى السمة التى تختلط بماء وجهه ، و هو الداعية الذى ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير فيحرك عواطفهم إلى ما يريد من أمر دعوته .

و إذا كان – هذا – لازماً للرسالات الأرضية على ما فيها من باطل فهو ألزم للإسلام ، لأنه رسالة الحق الخالص ، و بين الحق و فطرة الإنسان نسب فكلاهما من روح الله تعالى .

قال تعالى ﴿ وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة و الفطرة الطاهرة التى لا دين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه ، أحست أنه صدى أحاديثها و صورة ما هو مكتوب فى أطوائها .

قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ من سورة العنكبوت آية : ٤٩ .

هذا هو الخطيب الداعية الذى أعنيه فى دراستنا هذه عن الخطابة فى

الإسلام ، و إلا فهناك الكثير من الخطباء الذين تعجبك أقوالهم ، و لكن للأسف الشديد ليس لهذه الدراسة الموجزة - إن شاء الله تعالى - بعض النماذج المباركة التى أثرت فى الجماهير مدة طويلة من الزمان و نعتقد أن هذا التأثير سيظل فى عطائه إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

تجربة عملية فى حياة داعية خطيب ناجح :

و حتى يتضح لك مدى تأثير النماذج الصالحة من الخطباء الدعاه و دورهم فى التفسير أقص عليك تجربة عملية لواحد منهم صدرت عن تلمه و هو الدكتور / مصلح بيومى فيقول :

اذكر أننى خضت هذا المجال فترة من الزمان ، و من خبراتى و تجاربى فى ذلك كنت أعمل فى وقت ما - إماماً و خطيباً و مدرساً - بإحدى قرى جمهورية مصر العربية و كان عددها كبيراً و الأمزجة فيها متعددة و متنوعة ، و كانت تحتوى على عدة مساجد - بل و كنائس - مما يجعل العمل فى هذا المجال من الصعب بمكان و من فضل الله على أننى بدأت العمل فى أول شهر رمضان .

و أخذت أفكر كيف أجمع هذه القلوب المتنافرة المتباعدة ...عن الله تعالى ؟

و لم أجد أمامى إلا أن أعمل على إحياء سنة من سنن رسول الله ﷺ ألا و هى : صلاة العيد فى الصحراء .

و كان الحديث و العمل على ذلك يؤدى إلى الكفر و العياذ بالله - في نظر الكثير ، لأنهم اعتبروا أن هذا هجر و خراب لبيوت الله تعالى حينئذ أخذت أعد للأمر عدته و ذلك بالخطوات التالية :

١ - قمت بمشاركة أهل البلدة جميعاً فى السراء و الضراء داخلها و خارجها .

٢ - عملت على الحرص و الإلتزام الكامل بالإنتظام فى الدروس و خطب الجمعة مع الإمامة فى الصلاة بالطريقة التى جذبت الناس إلى تعاليم الإسلام .

٣ - كنت بعيداً - بفضل الله تعالى - عن الأمور المادية التى تشوه سمعة الإنسان فى حياته السلوكية .

٤ - و مع هذا و غيره كنت أمهد لهذا الأمر أثناء الدروس العلمية حتى أقنع أهل البلدة فى نهاية شهر رمضان بضرورة إحياء سنة النبىﷺ فى صلاة عيد الفطر بالصحراء .

٥ - لم أتكل على ذلك بل كونت مجموعة من المحبين لنشر دين الله تعالى ، و استيقظوا قبل فجر يوم العيد ، و كان معنا مكبر الصوت و بعد الصلاة انقسم الجمع إلى قسمين :

قسم أخذ يعد المكان الذى سيؤدى فيه صلاة العيد .

و قسم آخر يطوف حول البلدة .

و ينادى بصوت يدل على الحب و الصفاء لإحياء تعاليم الإسلام ، و دعوة النبى المصطفى عليه الصلاة و السلام ينادى بهذا النشيد العذب « الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله و الله أكبر ، الله أكبر و لله الحمد ..» .

و هكذا أخذ الناس يتجمعون بطريقة لم تخطر على بال لدرجة أذكر فى هذا اليوم أنى أخرت صلاة العيد حوالى نصف ساعة من كثرة ما كان يأتى الناس من كل الإتجاهات .

ثم أديت صلاة العيد ، و ألقيت خطبة العيد ، و كان التوفيق من العلى الكبير .

و بعد ذلك كانت التعليقات العجيبة من أفواه المصلين كما يلى :

و منهم من يقول : حقاً لم أحضر للصلاة إلا لإخراج الخطيب الذى جعل الناس يهجرون بيوت الله فى هذا اليوم ، و لكن للأسف لم أستطيع أن أتفوه بكلمة واحدة أمام هذا الخير العظيم .

و من السيدات الفضيليات من قالت بعد أن شهدت هذا الجمع عن قرب و كانت قد أدت حج بيت الله الحرام : أننى فى هذا اليوم كأننى كنت على عرفات أستعيد الذكريات العظيمة .

إلى غير ذلك من التعليقات الكثيرزة التى جعلت أهل البلدة جميعاً هم أنفسهم الذين كانوا ينادون فى كل عيد يأتى - عيد الفطر أو عيد الأضحى - يسرعون بالإعداد للصلاة خارج المساجد .

و صدق الله العظيم إذ يقول ﴿إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ من سورة هود : (٨٨) .

الطريقة المثلى فى الإعداد :

و على ذلك فلابد من إعداد الخطيب الداعية فكيف نعد هذا الخطيب ؟

و الجواب ما يلى :

أولاً : أن نحسن اختيار أصحاب المواهب التى تحمل الصفات و القدرة الخطابية فى سن مبكرة .

و هذا الإختيار يقوم به أصحاب الخبرة ، و علماء هذا الفن كما يحدث - مثلا - فى اختيار السباب للكليات ، و المعاهد العسكرية التى تؤهلهم فيما بعد ليكونوا حماة و درعاً حصيناً للوطن و المحافظة عليه .

و لا شك أن تعهد الإنسان على شيئ معين من الصغر له أثر كبير فى تكوينه و صدق من قال :

و ينشأنا شيئ الفتيان منا * على ما كان عوده أبوه

و من قال أيضاً :

الأم مدرسة إذا أعددتها * أعددت شعباً طيب الأعراق

و المجتمع الإسلامى - أفراده و جماعات كل على حسب موقعه مسئول أمام الله تعالى على هذا النوع من التربية لأبنائه الذين يعد للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر .

قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران : ١١٠ .

و قال ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة آل عمران : ١١٤ .

و تربية الناشيذن على هذا الأساس معناه أن نصون فطرتهم الطاهرة من التدنس و رتكاب الخطايا أو من أن تستهويهم الرذيلة لأن مجرد استحسانها سيُعدهم لارتكابها إذا كبروا و أصبحوا قادرين عليها ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى فإن من واجب الراشدين أن يغرسوا معانى الإيمان فى قلوب الناشئين بشتى المناسبات .

بأن يلفتوا نظرهم إلى كل ظواهر الكون الدالة على قدرة الله و عظمته و وحدانيته ، و أن يوجهوا و يهذبوا سلوكهم بآداب الإسلام ، و أن ينصحوا إذا دخلوا المسجد و يعلموهم عبادة الله و آداب المساجد .

من أجل هذا اهتمت بعض المؤسسات الإسلامية فى المجتمع الإسلامى بهذا اللون من التربية ، و إعداد الخطباء ، الدعاة إلى الله عز و جل .

فعقدت المؤتمرات المتعددة فى عدد العواصم الإسلامية و قدمت البحوث المختلفة - و لا تزال - تبين ما يجب فعله نحو هذا الإعداد المهم للأفراد و الجماعات حسب ما تقتضيه ظروف و أحوال المجتمعات و مشكلاتها

المعاصره و من بين هذه المؤتمرات المؤتمر الإسلامى العالمى الثالث الذى عقد بمكة المكرمة عام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

و قد ناقش هذا المؤتمر الدعوة الإسلامية و سبل تطويرها و تحدث فيه بعض الشخصيات الإسلامية بعمق و عرفان .

و كان البيان الختامى للمؤتمر يدل على أهمية الموضوع و خطورته .

و مما جاء فيه : و فى مجال الدعوة دعا المؤتمر إلى التوسع فى إنشاء كليات و معاهد الدعوة الإسلامية و تطوير مناهجها ، بحيث تشمل كافة العلوم التى تؤهل الداعية للقيام بواجب الدعوة .

كما دعا إلى إنشاء مراكز التدريب الدعاة على صعيد العالم الإسلامى .

و دعا الهيئات و المنظمات العاملة فى حقل الدعوة الإسلامية إلى تموين نشاطاتها بالطرق الذاتية عن طريق المشروعات الإستثمارية و الوقف الخيرى ، و باشد المؤتمر الحكومات الإسلامية تشجيع الإنتاج الإعلامى الملتزم فى شتى المجالات .

كما باشد الحكومات الإسلامية إفساح المجال و توفير الإمكانات للدعاة إلى الله لنشر حقائق الإسلام و رد أباطيل خصومه بالحكمة .

و فى تحقيق صحفى مع الدكتور / عبد الودود شلبى أمين عام اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ذكر فضيلته إنشاء المعهد العالمى لتدريب الدعاة بالعالم الإسلامى .

و أن هذه الفكرة بدأت عندما قام فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر بزيارة للأقطار الإسلامية فى آسيا و إفريقيا و ناقش مع المسئولين هناك المستوى العلمى و الثقافى للوعاظ و أئمة المساجد .

و استقرت الآراء على تتابع إرشادهم و رفع مستواهم و تزويدهم بالثقافة الإسلامية تحت رعاية الأزهر الشريف و ذلك بعقد الدورات التدريبية المستمرة و المتنوعة .

و بالفعل خرجت الفكرة إلى حيز الوجود حتى قال الدكتور / شلبى :

و نحن من جانبنا سنقوم بتطوير هذا المعهد ، ليصبح أول مركز عالمى للدعوة الإسلامية . ليتولى إعداد و توجيه و تدريب أبناء العالم الإسلامى من رجال الدعوة الإسلامية .

و يقول المشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية بالقاهرة :

لقد قمنا بإعداد عمارات سكنية داخل مدينة البعوث الإسلامية لإقامة الدارسين بالمعهد العالمى لتدريب الدعاة بالعالم ، و قد تم تزويدها بكل ما يحتاج إليه الدارس ، فإلى جانب غرف النوم المجهزة تجهيزاً طيباً هناك الأماكن المخصصة لاستذكار المحاضرات ، و مكتبة تضم الكتب الإسلامية باللغات العربية و الأجنبية التى يتحدث بها الدارسون فى الدول المشتركة فى هذه الدورات التدريبية .

و هكذا خرجت الفكرة إلى حيز الوجود و لو أنها نفذت فى حدود ضيقة - بسبب الإمكانيات - إلا أنها من الممكن أن تتسع و تتسع حتى تشمل العدد الكبير الذى نريده و الله من وراء القصد .

و مما يساعد على وجود مثل هذه الفئة المؤمنة - مستقبلاً - بعد حسن الإختيار فى وقت مبكر - كما ذكرنا - إنشاء الجمعيات و المراكز الخطابية ، و إيجاد التنافس بين الشباب فى هذا المجال عن طريق المسابقات و التشجيع المستمر، و تدريبهم على مواجهة الجماهير ، و قوة الصوت ، و الإستماع دائماً إلى الخطباء المجيدين و قراءة الكلام الجيد شعراً و نثراً ، و حسن الخلق ، و الصفات الحميدة و وضع دروس و قواعد و مناهج يلتزم بها الخطيب من صغره حتى يصبح فيما بعد قدوة و قائداً يقتدى به فى علمه و عمله هذا إلى ترسيخ العقيدة الحقة فى نفسه حتى لا يتزعزع أبداً مهما وقفت العقبات فى طريقه .

ثانياً : إعداد الخطيب الداعية عقلياً:

لاشك أن الخطيب فى أمس الحاجة إلى الإعداد العقلى ، و أهم مظهر لذلك هو الذكاء العام أو الحكمة ، معنى هذا أن يكون لديه الإستعداد لحسن التصرف حينما يواجه بأى أمر من الأمور - خاصة الحرجة منها - و الخطيب الناجح يحتاج إلى الذكاء بكل أنواعه .

سواء كان نظرياً أو عملياً أو إجتماعياً طالما أنه يتعامل مع مسائل

و قضايا نظرية ، و مع مواقف و أمور عملية حسية ، و مع مواقف و مشكلات اجتماعية ،

و مما يزيد من حاجة الخطيب إلى الذكاء بأنواعه الثلاثة كما ذكرنا هو اشتغاله بأمور عملية و نظرية ، و تعرضه لكثير من الأسئلة و توقع الناس منه أن يكون مصدراً موثوقاً منه للإجابة على أسئلتهم .

و أن يكون سريع البديهة لبقاً فى حديثه كيساً فطناً حذراً حسن التدبير يخاطب الناس على قدر عقولهم و يدعو إلى ربه على أساس من الحكمة و البصيرة و العلم ، امتثالاً لقول الله تعالى ﴿ إِدعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَ المَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَ جَادِلهُم بِالَّتِى هِىَ أَحسَنْ ﴾ .

و قوله تعالى ﴿ قُل هَذِهِ سَبِيلِى إِدعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ .

و يتوقع المجتمع منه بالإضافة إلى كل هذا أن يساهم فى إثراء الفكر و بث الرعى و تجديد الثقافة و هو لا يستطيع أن يقوم بكل هذا بدون درجة عالية من الذكاء الفطرى و المكتسب .

و مما يدل على أهمية الناحية العقلية عند إعداد الخطيب ما قاله أحد الباحثين : « إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب ، بل هو ضرورة عقلية كذلك ، و بدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذى أثاره القرآن قلقاً حائراً بغير جواب ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ سورة الطور : ٣٥ - ٣٦ .

و ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، لا يملك الإنسان - إذا ترك و نفسه - إلا أن يجيب به ، كما فعل المشركون أنفسهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ سورة الزخرف : ٩ .

و لقد علم القرآن الكريم - الخطيب الداعية - كيف يستدل على وجود الله عز و جل ، و كيف أنه دعا العقل إلى التفكير و البحث و التأمل فى الكون و كشف أسراره .

قال تعالى ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

و قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة : ١٦٤ .

ليس هذا فقط ، بل إن القرآن الكريم كرر لفظة « الألباب » ست عشرة مرة ، و لفظة « العقل » أو ما يشتق منها تسعاً و أربعين مرة ، و لفظة « فكر » و ما يشتق منها ثماني عشرة مرة .

يقول العقاد « و فريضة التفكير فى القرآن تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها و مدلاتها فهو يخاطب العقل الوازع و العقل المدرك و العقل الحكيم و العقل الرشيد ، و لا يذكر العقل

عرضاً مقتضياً ، بل يذكره مفصلاً على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان » .

و يزيد العقاد الأمر وضوحاً فى قوله : « و لكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم و التنبيه إلى وجوب العمل به و الرجوع إليه » .

أما النبى ﷺ فقد كان يعمل على إعداد العقل و تنميته فى الجيل المثالى الذى رباه لحمل الرسالة الإسلامية إلى البشر .

و من ذلك : أنه كان يلقى بالسؤال فيتنبه الجميع إليه و يفكرون فيه و يشغلون عقولهم فى الجواب ...

بعد ذلك يجيب النبى عليه الصلاة و السلام فتقع الإجابة فى قلوبهم و لا ينسوها أبداً ، مثل ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : أن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها و أنها مثل المسلم ، فحدثونى فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبد الله : و وقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله ؟

قال : هى النخلة .

فهذا اللون من التعليم النبوى يربى العقل و ينميه .

الأساليب التنموية لتكوين الذاتية الفكرية للخطيب الداعية :

و من الأساليب التى تعمل على إعداد العقل إعداداً طيباً ، وضع منهاج من الأسئلة ، و العمليات العامة ..التى تربى فى نفوس الشباب أعمال الفكر و التنافس فى ذلك ، مثل :

(أ) فوازير :

١ - ما هو الشئ الذى فى رأسه سبع فتحات ؟

٢ - ما هو الشئ الذى تكمله ، و لكنك لا تستعمله أبداً و أحياناً تفقده ، و لا تعثر عليه إلا بعد حدوث أشياء معينة ، و نستطيع أن تحركه و تستطيع أيضاً أن تجعله يكبر و لكن بمساعدة شئ ؟

٣ - متى تستطيع أن تبقى الماء فى الشبكة ؟

الإجابة :

١ - رأس الإنسان .

٢ - الخيال .

٣ - عندما يكون الماء ثلجا ...إلخ .

(ب) إسلاميات :

١ - من هم العشرة المبشرون بالجنة ؟

٢ - قال رسول الله ﷺ « لقد رأيتك بمكة و ما بها أحد أرقى حلة منك و لا أحسن لمة منك - ثم أنت أشعث الرأس فى بردة من المقصود بهذا القول ؟

٣ - رتب هذه المعارك حسب حدوثها من الأقدم إلى الأحدث .

١ - ذات السلاسل ٢ - السزار .

٣ - ألبس . ٤ - الولجة .

الإجابة :

١ - أبو بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، عبد الرحمن بن عوف ، الزبير بن العوام ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبى وقاص ، سعيد بن زيد ، أبو عبيدة بن الجراح .

٢ - مصعب بن عمير .

٣ - نفس الترتيب .

إلى آخر هذه الأشياء الطيبة التى تربى العقل و تعده و تفتح ذهنه للإكتساب و لاإطلاع و المناقشة و غيرها .

ثالثاً : إعداد الخطيب من الناحية الجسمية :

من الحكم المأثورة : العقل السليم فى الجسم السَليم .

و لابد للخطيب الداعية من جسم قوى يستطيع به أن يؤدى رسالة هؤلاء قال ﷺ « المؤمن القوى خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ، و إذا نظرنا إلى الأنبياء و المرسلين نجدهم جميعاً كانوا فى قوة جسمانية جعلتهم يواصلون تبليغ دعوة الله تعالى .

و على سبيل المثال : رحلة النبى ﷺ من مكة إلى الطائف ، و المعارك التى خاضها ، و مصارعته لركانة ...كل هذا و غيره كان يحتاج إلى جسم قوى .

كذلك سيدنا موسى عليه الصلاة و السلام و رحلته من مصر إلى مدين و من مدين إلى الطور ثم إلى مصر ثم رجوعه مرة أخرى ، مما جعل ابنة شعيب تقول لوالدها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) ألا يحتاج هذا المجهود الجهار إلى جسم قوى ؟

و على هذا فالخطيب لا يستطيع أن يقوم بواجبه كاملاً فى مجال الدعوة و الإرشاد إلا إذا توفر له بجانب الصفات الإيمانية ، و العقلية ، و العلمية ، و الخلقية . . . . صفات بدنية و مظهرية تجعل منه الشخص القوى فى جسمه اللائق فى بدنه ، القادر على تحمل مشاق العمل و متاعب التبليغ – و على احتمال التغيرات الطبيعية و الإجتماعية و على مواجهة الصعاب

و المشاكل و التحديات ، الحسن فى هيئته الكريم فى مظهره الجميل فى هندامه .

لهذا يقول تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ سورة البقرة : ١٩٥ .

و يقول ﷺ « لا ضرر و لا ضرار » رواه أحمد و ابن ماجة .

و يقول تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ سورة الأعراف : ٣٠ .

و يقول ﷺ « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » رواه ابن حبان إلى آخر هذا الحشد الكبير من آيات الله ، و سنة رسوله ﷺ الذى يسبق المقام عن ذكرها .

و يكفى أن نلفت النظر إلى أن المربين الأوائل أمثال :

الإمام السمعانى ، و الإمام الغزالى و غيرهما ، يعتبرون حسن الهيئة و المظهر ، صفة من الصفات المرغوبة فى المعلم المسلم ، و الخطيب – طبعاً – معلم .

و لقد روى الإمام السمعانى عن مالك بن أسر رضي الله عنه : أنه قال : « إذا عرض عليه الموطأ لبس ثيابه ، و أخذ ساجه و عمامته ، ثم أطرق و لا يتنحم و لا يعبس بشئ من لحيته حتى يفرغ من القراءة ، إعظاماً لحديث رسول الله ﷺ » .

و مما يروى أيضاً عن مالك بن أنس أنه كان « إذا أراد أن يجلس

للحديث اغتسل و تبخر و تطيب ، فإن رفع أحد صوته فى مجلسه زجره و قال :

قال الله عز و جل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ** ﴾ فمن رفع صوته عند حديث رسول الله ﷺ فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ .

و إتماماً للفائدة سنورد فيما يلى بعض الوصايا النبوية لتربية النشئ فى هذا المجال :

- أوصى الرسول بتكبكير الشباب للزواج إذا كان قادراً على ذلك قال ﷺ :

« يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر و أحسن للفرج ، و من لم يستطع ، فعليه بالصوم » رواه البخارى فى صحيحه حـ ٧ ص ٣ .

و أوجب ﷺ على الآباء أن يجيبوا أولادهم أماكن الهو و الفجور ، لأن فى ذلك ضياع صحتهم و هلاك أجسامهم .

قال ﷺ « ما نحن والد والدا أفضل من أدب حسن » .

- و لقد جاء فتى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ، فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : قربوه ، إدن ، فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبى ﷺ : « أتحبه لأمك » ؟ قال لا ، جعلنى الله فداءك ، قال

« كذلك الناس لا يحبونه لامهاتهم » ... « أتحبه لابنتك ؟ » قال : لا « جعلنى الله فداءك . قال « كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » .

« أتحبه لاختك ؟ » قال و زادت بعض الروايات أنه ذكر العمة و الخالة و هو يقول فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداءك ، فوضع الرسول ﷺ يده على صدره و قال (اللهم طهر قلبه و اغفر ذنبه و حصن فرجه) فلم يكن شئ أبغض إليه منه ، يعنى الزنا .

و النبى ﷺ يأمر بتدريب الشباب رياضياً حتى ينشأوا أقوياء ، و حتى يستطيعوا بقوتهم الجسمانية مواجهة أعدائهم ، و السير فى مناكب الأرض طلباً لأرزاقهم .

يقول ﷺ :

« حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتاب - أى القرآن — و السباحة و ألا يرزقه إلا طيبا » .

و خص السباحة بالذكر لأنها تنشط جميع الأعضاء ، و هى أيضاً من أهم ما يجب على الإنسان أن يتعلمه حتى يستطيع إنقاذ نفسه إذا ما تعرض لعواصف البحار و أخطارها .

كما أوصى أيضاً بتدريب الشباب على الرمى .

قال تعالى ﴿ وَ أعِدُّوا لَهُم مَّا إستَطَعتم مِن قُوة وَ مِن رِبَاط الخَيل تُرهِبُون به عَدوُ الله وَ عَدوكُم ﴾ .

و قـــال ﷺ « ألا إن القـوة الرمى ألا إن القـوة الرمى ... ألا إن القـوة الرمى » .

و قـــال ﷺ « كل شئ ليس من ذكر الله فـهو لـهو أو سـهـو ، إلا أربع خـصـال : مـشى الرسل بين العـرضين ، و تأديبـه فـرسـه و مـلاعـبتـه أهله ، و تعليم السباحة » .

و يوصـى النبى ﷺ بأن ينام الشباب وحدهم إذا بلغوا العاشرة فما فوق ، لقوله ﷺ : « ....و أن يفرقوا بينهم فى المضاجع » .

و هذا دليل على أن التربية النبلوية تنشئ إستقرار الشباب جسمانياً لكى لا يتحرك عن طريق الشهوات الهالكة القاتلة .

لم تقتصـر التربيـة النبوية فى تدريب الشباب على السباحة و الرمى فقط بل أوصت بالكثـيـر من أنواع الرياضـة كالمصـارعـة المعـتدلة و الفـروسـيـة ، و العدو و أنواع الكرة إذا خلت من التعـصب و ضـياع الوقت ، و الرحـلات الهادفة التى تضيف إلى الإنسان الكثير من المعلومات .

و كذلك الفـتيات يمارسن الرياضـة و لكن بشرط عدم ظهور العورة و لا يكون أمام الرجال .

و أعود مرة أخرى إلى وصـية الرسول ﷺ بالأدب الحسن للشباب مبتعداً عن التبـرج و لاإخـتـلاط و سـفر المرأة وحدهـا ، و الخلوة بالأجنبـيـة و عـدم اللمس و كل ما يؤدى إلى الخنا و الفجور .

كما لا ننسى وصـية الرسول بألا يرزق الإنسـان أهله إلا طيبا سـواء كان هذا الطيب من حلال أو كان هو فى ذاته حلالاً .

رابعاً : إعداد الخطيب علمياً و ثقافياً :

من الصفات الهامة للخطيب التى يجب أن يتحلى بها و نعمل على إعداده من خلالها ، أن يكون لديه القدر الكبير من العلم و الثقافة الواسعة التى تدعم رسالته و تكسبه وعياً بمشكلات مجتمعه ، و قضايا عصره .

و بالواقع المحيط به من جميع نواحيه الجغرافية ، و التاريخية و الإجتماعية و الإقتصادية و السياسية .

إذ بقدر سعة ثقافته يكون نجاحه فى تبليغ رسالة ربه ، و تأدية أمانته ، و يكون تأثيره فيمن حوله أمراً ملحوظاً فهو إذا ناقشهم أقنعهم و أثر فيهم بسعة ثقافته و وعيه و أجاب على أسئلتهم و على ما يشغل بالهم إجابه الواعى الواسع فى علمه و إطلاعه ، و إذا تكلم فى أمر من أمور الدين تكلم بلغة العصر الذى يعيشه .

و عن وعى بشمولية تعاليم الدين و مرونتها و قدرتها على الاستجابة لنقتضيات الزمان و المكان فى كل عصر ، و عن وعى بالواقع الذى يعيش فيه و بمشكلات هذا الواقع .

طبعاً كل هذا فى ضوء مصادر الإسلام الأصيلة التى لا يحيد عنها قدر أنملة .

من أجل هذا نادى المربون المسلمون و كذلك المحدثون الذين لم يألوا جهداً فى الحث على طلب العلم و التوسع فيه على مدى الحياة .

و فى بيان أنجح الوسائل و الطرق لاستكمال التعليم و توسيع الوعى و الثقافة العامة .

قال تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

و قال ﴿ و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

و قال ﴿ و قل رب زدني علما ﴾ .

و قال ﷺ « من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة » أخرجه الترمذى .

و قال « العلم ثلاثة و ما سوى ذلك فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » أخرجه أبو داود .

و قال « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله و رسوله » أخرجه البخارى .

و قال عليه الصلاة و السلام « لن يضر الله إمرءا سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » أخرجه الترمذى و أحمد و ابن حبان .

و يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » رواه البخارى فى صحيحه .

و يقول ﷺ :

« لا حسد إلا فى إثنين : رجل أتاه الله مالاً فسلط على هلكته فى الحق ، و رجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها و يعلمها » .

و يقول عليه الصلاة و السلام : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة ، و ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة و غشيتهم الرحمة و حفتهم الملائكة و ذكرهم الله فيمن عنده » .

و كان [يبين أهمية طريقة بث المعرفة فيقول عليه الصلاة و السلام « يسروا و لا تعسروا ، بشروا و لا تنفروا » .

و كان ﷺ يحث على إعطاء النفس من التعليم بقدر ما تتحمل خوفاً من الملل و السآمة التى تؤدى عكس الرغبة فى التعليم .

و من ذلك : أن عبد الله كان يذكر الناس فى كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا فى كل يوم . قال : أما أنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملكم و أنى أتخولنا بها مخافة السآمة علينا » .

و كان ﷺ له طريقته المثلى فى التعليم ، و ذلك أنه كان يلقى بالسؤال فينتبه الجميع و يفكرون فيه .

و غالباً ما كانوا يجهلون فيجيب النبى ﷺ فتقع الإجابة فى قلوبهم و لا ينسوها أبداً .

و من ذلك ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عمر كما عرفنا سابقاً قصة النخلة .

و من طريقته ﷺ أنه كان يستعمل التكرار حتى لا تضيع على المستمع كلمة مما قال و حتى يفهم فى المرة الثانية من لم يكن قد فهم فى المرة الأولى ، و يفهم فى المرة الثالثة من لم يفهم فى المرة الثانية .

فعن أنس بن مالك فيما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه ، و إذا أتى على قوم فسلم عليهم ثلاثاً .

و لقد بين النبى ﷺ أهمية حرص الأمة على العلم فى قوله : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا و أضلوا » . رواه البخارى .

هذا العلم النافع الذى يحرص النبى ﷺ على تعليمه للأمة خاصة الشباب لا يتلقاه الناس على طريقة سواء ، بل كل منهم على قدر ما وهبه الله من القدرة على التلقى و الحفظ و الفهم .

لهذا يقول ﷺ فيما رواه البخارى :

« مثل ما بعثنى به الله عز و جل من الهدى كمثل غيب أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير ، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها و سقوا

و رعوا ، و أصاب طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء و لا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه فى دين الله و نفعه بما يعثنى الله به ، فعلم و علم ، و مثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

و لقد بلغ من إهتمام النبى ﷺ بالعلم و تعليمه أنه اعتبر حفظ المسلم لبعض آى الذكر الحكيم مسوغاً للزواج ، كمثل من يمتلك ثروة مادية يمكن التعامل بها ، فقد أراد رجل أن يتزوج إمرأة و لم يكن له شئ من مال ، فجاء إلى النبى ﷺ فسأله :

ماذا معك من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا و سورة كذا و عددها .

فقال : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟

قال : نعم ، قال : ملكتكها بما معك من القرآن » .

و كان ﷺ يحرص الأمة - بما فيها الشباب - على التعليم ، فهذا هو أبو رفاعة قال :

انتهيت إلى النبى ﷺ و هو يخطب ، فقال : فقلت : يا رسول الله : رجل غريب يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه .

قال : فأقبل على رسول الله ﷺ و ترك خطبته حتى انتهى إلى فأتى بكرسى حيث قوائمه من حديد له .

قال : فقدمه عليه رسول الله ﷺ و جعل يعلمنى مما علمه الله ، ثم أتى خطبته فأتم آخرها .

و لقد بلغ من حرص النبى ﷺ على تعليم الأمة أنه كان يتناول التعليم بأى وسيلة من الوسائل المختلفة كالقصة و المثل .... إلخ .

من هذا المنطلق يجب أن نعد الخطيب علميـاً و ثقافـيـاً على الأسس التالية : -

(أ) أن يحفظ كتاب الله تعالى ، و هذا يجعلنا نبدأ فى تحفيظه لهذه الفئة المؤمنة من الصبا ، حتى المرحلة العليا ، حينئذ من الممكن أن ييمه فعلاً طالب العلم ، أو على الأقل إذا اقتضت الضرورة أن يحفظ الآيات و النصوص التى يستشهد بها فى خطبة و دروسه .

و كم سمعنا و قرأنا عن صبيان حفظوا كتاب الله تعالى قبل سن العاشرة .

و أنا أكتب هذاالموضوع وقع فى يدى آخر عدد من جريدة « المسلمون » جريدة المسلمين الدولية فى السنة الرابعة العدد ١٧٦) و فى الصفحة الأولى بخط واضح « الطفل الفقيه » عمره ٧ سنوات و يحفظ القرآن و موسوعة السنة النبوية ، جدل علمى مثير حول إمكانية إلحاق الطفل بالجامعة مباشرة .

قرر شيخ الأزهرعقد لجنة لمناقشة الطفل الفقيه و اختباره فى القرآن الكريم و الفقه و أصوله و العبادات و الأحاديث تكونت اللجنة برئاسة مدير عام المعاهد الأزهرية و من موجهى المواد الأساسية و بعض أساتذة جامعة

الأزهر كما حضر المناقشة شيخ الأزهر بنفسه ، توالت الأسئلة من المتشابهات فى القرآن و أحكام التلاوة و الطفل يجيب بدقة .

انتهت المناقشة بعد أن تصبب المناقشون عرقاً بينما ابتسم الطفل الضرير الذى لم ير وجوههم .

قرار أعضاء اللجنة إلحاق الطفل بالصف الأول الإعدادى مباشرة و ابتداء من العام القادم .

لقد بكى المسئول الكبير و هو يصافح الطفل الكفيف ، كما قرر محافظ أسوان بمصر منحه شقة تمليك على أن تتولى المحافظة الإنفاق عليه فى مراحل التعليم المختلفة .

و التقى محرر « المسلمون » مع الطفل الفقيه و أجرى معه تحقيقاً واسعاً مكتوباً و مصوراً .

و مع حفظ القرآن يجب أن يدرس الطالب شيئاً من علومه خاصة التفسير الذى عن طريقه يفهم كتاب الله و يتحرى فى أثناء ذلك البعد عن الأمور الآتية :

١ - الإسرائليات التى تشوه الإسلام .

٢ - الروايات الضعيفة و ما لا يوثق بها .

٣ - الخلافات التى لا طائل تحتها .

و لمحكم و المتشابه ، و المطلق و المقيد ، إلى غير ذلك من علوم القرآن

الكريم ، و من الكتب النافعة فى هذا المقام ما يلى :

- النبأ العظيم : للدكتور محمد عبد الله دراز .
- مناهل العرفان : للشيخ الزرقانى .
- تفسير ابن كثير .
- فى ظلال القرآن الكريم .
- مباحث فى علوم القرآن : للدكتور صبحى الصالح .
- مباحث فى علوم القرآن : للأستاذ / مناع القطان .

و ما دمنا نتحدث عن أهم مصادر و مراجع الخطيب و فى مقدمتها كتاب الله تعالى يقتضينا المقام أن نقف - قليلاً - أمام هذا المصدر الأهم لنتعرف على عظمته و إعجازه .

القرآن الكريم هو :

كلام الله تعالى الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ لينقذ البشرية من الظلمات إلى النور و من الضلالة إلى الهدى و من الغى إلى الرشد و من الظلم إلى العدل .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سورة المائدة : ١٥ - ١٦ .

و لعظم هذا القرآن أنزله المولى على رسوله ﷺ فى أعظيم ليلة خلقها

البارى سبحانه ، ألا و هى : ليلة القدر المباركة فقال تعالى :

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ سورة القدر .

و أنزله أيضاً فى أعظم شهر ألا و هو (شهر رمضان المعظم) ﴿ **شَهر رَمَضَان الذى أُنزِلَ فيه القُرآن هُدًى للنَاسِ وَ بَيِنَات من الهُدَى وَ الفُرقَان** ﴾ .

على قلب أفضل نبى و رسول : ألا و هو :

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة و السلام .

و القرآن معجزة الإسلام الخالدة ، ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ سورة الإسراء : آية ٨٨ .

و عجاز القرآن الكريم فى كل وجه من الوجوه المختلفة .

منها : فصاحة ألفاظه ، و بلاغة أساليبه ﴿ **الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ سورة هود آية : ١ .

و منها : اتساق آياته على كثرتها ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ سورة النساء : ٨٢ .

و منها : أنه أخبر بوقائع ماضية ، و وقائع مستقبلة ، و تحقيق ذلك :

﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا**

فاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة هود : ٤٩ .

و منهـا : أنه يؤثر فى النفـوس ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ سـورة الزمر آية : ٢٣ .

و لأهمـيـة القـرآن الكريم أعلن النبى ﷺ قـوله فـيمـا رواه التـرمـذى عن على رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، فقلت : و ما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال : كتاب الله .

فيه نبأ ما قبلكم ، و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، و من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، و هو حبل الله المتين و هو الذكر الحكيم ، و هو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء و لا تلتبس به الألسنة و لا يشبع منه العلماء و لا يخلق عن كثرة الرد ، و لا تنقضى عجائبه .

و هو الذى لم تنته الجن إذا اسمعته أن قالوا :

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهدِى إِلَى الرُّشد فَآمَنَّا بِه ﴾ من قـال به صـدق و من حكم به عدل ، و من عمل به أجر ، و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

و لم يستطع العرب – رغم قوة معارضتهم – أن يستروا أحاسيسهم فقد سمع الوليد بن المغيرة يوماً القرآن ، فأعجب به أشد الإعجاب و أعلنها صريحه مدويه لأبى جهل حينما ناقشه حول القرآن :

(ماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، و لا برجزه ، و لا بقصيدة و لا بأشعار الجن ، و الله ما يشبه الذى تقول – يعنى القرآن – شيئاً من هذا ، و والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، و إن عليه لطلاوة ، و أنه مثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، و إنه ليعلوا و لا يعلى عليه ، و إنه ليحطم ما تحته) .

و فضل القرآن الكريم ليس على العرب وحدهم ، فإن العالم أجمع جنى أكرم الثمرات من هذا الكتاب العظيم ، ذلك أن تعاليمه أعادت بناء الإنسانية من جديد ، و أزالت ما خلفته القرون الأولى من عوج فى عقلها و فؤادها .

و الوجهة التى انساق إليها العالم من ظهر القرآن هى التى أنشأت المنطق الحديث ، و حررت أساليب المعرفة ، و أمكنت من السيطرة على الكون .

و لولا ما شرع القرآن من طرق النظر الصحيح و العمل الطيب ، لظل العالم يتدحرج مع خرافات الرومان و الفرس حتى يبلغ الحضيض .

و لكن الله برحمته و بره أنقذ البشرية من هذا المصير المظلم ، و ذلك بنزول القرآن على قلب النبى ﷺ .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ سورة الإسراء آية : ٩ - ١٠ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ سورة الكهف : ١ - ٥ .

و لقد أوصى الله تعالى بتلاوة كلامه ، و العمل به ، و تطبيق أحكامه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ سورة فاطر : ٢٩ - ٣٠ .

كما أوصى بذلك النبى ﷺ فيما روى عن عبد الله ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ ، من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، و الحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، و لكن ألف حرف ، و لام حرف ، و ميم حرف » .

لقد تلقى أصحاب النبى ﷺ هذا القرآن بشغف شديد حتى كانت له ثمرة فى حياتهم ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ

نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ سورة الأحزاب : ٢٣ .

و من الرجال الذين صنعهم القرآن الكريم و أصبحوا سادة بعد أن كانوا عبيدا : بلال بن رباح ، و خباب بن الإرت ، و صهيب الرومى ، و سلمان الفارسى ...هذا عن الكثير من سادة العرب الذين صنعهم القرآن لتحمل المسئولية .

و على سبيل المثال لا على سبيل الحصر فيما قاله تعالى ﴿الم ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة العنكبوت : ١ - ٢ .

عن الشعبى قال « دخل خباب بن الإرت على عمر بن الخطاب فأجلسه على متكئه و قال : ما على الأرض أحد بهذا المجلس من هذا الأرجل واحد ، قال له خباب : من هو يا أمير المؤمنين ؟

قال بلال ، فقال له خباب : يا أمير المؤمنين ما هو بأحق منى ، إن بلالاً كان له فى المشركين من يمنعه الله به و لم يكن لى أحد يصنعنى .

فلقد رايتنى يوماً أخذونى و اوقدوا لى ناراً ثم سلقونى فيها ثم وضع رجل رجله على صدرى فما اتقيت الأرض إلا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص .

و لقد بلغ من صنع القرآن لهم أن وصلوا إلى درجة الإيثار ﴿وَالَّذِينَ

تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ سورة الحشر : ٩

و لقد قال النبى ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعرى « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم فى إناءٍ واحد فهم منى و أنا منهم » .

و لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن كتاب الله ، و سنة رسوله فتعرضوا بذلك للضيلاع و الشقاء و الدمار .

و صدق الله العظيم إذ يقول **﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢٣) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾**
سورة طه (١٢٣ - ١٢٧) .

و لهذا قال الإمام القرطبى : ضمن الله لمن قرأ القرآن ، و عمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا و لا يشقى فى الأخرة - و تلا الآية .

و قال تعالى أيضاً **﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾** سورة الروم : ٤١ .

يقول الإمام ابن كثير : أى أن النقص فى الزروع و الثمار بسبب المعاصى ، و قال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض و السماء بالطاعة و لقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود :

« لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن ينظروا أربعين صباحاً » و السبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انزجر الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطى المحرمات و إذا تركت المعاصى كانت سبباً فى حصول البركات من السماء و الأرض .

و لهذا ثبت فى الصحيحين قوله ﷺ (إن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد و البلاد و الشجر و الدواب) .

و لا عجب فى ذلك ، فقد قال تعالى فى محكم تنزيله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الأعراف : ٩٦ .

و على هذا ، فإذا أراد المسلمون خاصة و الناس عامة أن يعيشوا فى أمن و سلامخ و عزة و كرامة ، و سعادة فعليهم بالرجوع فوراً إلى كتاب الله و سنة ورسوله عليه الصلاة و السلام .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ سورة النساء : ٩ .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد و غير واحد من السلف : أى إلى كتاب الله و سنة رسوله ، و هذا أمر من الله عز و جل بأن كل شئ تنازع الناس فيه من أصول الدين و فروعه أن يُرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب و السنة كما قال تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

أى ردوا الخصومات و الجهالات إلى كتاب الله و سنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

فدل ذلك على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب و السنة و لا يرجع إليهما فى ذلك فليس بمؤمن بالله و لا باليوم الآخر .

و قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله و الرجوع إليهما فى فصل النزاع خير و أحسن تأويلا ، أى أحسن عاقبة و مالاً .

و ما دمنا قد ذكرنا السنة مع الكتاب فلابد من التعريف بها ، خاصة و أنها مصدر و مرجع للخطيب الداعية يجب أن يُلم بها على القدر المستطاع حتى لا يعرض نفسه للأقوال المكذوبة على رسول الله ﷺ .

ب - السنة النبوية و أهميتها فى إعداد الخطيب الداعية :

السيرة و السنة الشريفة و ضرورة إهتمام الخطيب الداعية بدراستها

و التحقق من صحة نسبتها للنبى – ﷺ – قبل إعلانها على الناس ، أمر لا غنى عنه البتة للخطيب الداعية .

فالسنة مصدر من مصادر الخطيب الداعية ، يجب أن يلم بها على قدر المستطاع و حتى نعرف بأهمية السنة للخطيب الداعية نذكر ما يلى :

إن إهتمام الصحابة و التابعين ..بالسنة النبوية الشريفة لا يقل عن إهتمامهم بالقرآن الكريم ، ذلك لأن السنة هى المصدر الثانى لشريعة الإسلام .

و على هذا كان الهجوم على ألسنة من المستشرقين و المبشرين و غيرهم من أعداء الإسلام لا يقل خطراً عن الهجوم على القرآن الكريم .

إذا كان الأمر كذلك فلابد من معرفة شئ من تاريخ السنة ليتبين لنا قيمة الإهتمام بها و الحفاظ عليها من الصحابة و التابعين و غيرهم .

التعريف بالسنة :

عرفها العلماء المهتمين بهذا الفن بأنها ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو نحو ذلك مما يتصل بهداية الناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين .

و مثل هذا أو قريب منه : الحديث ، و الخبر ، و الأثر ..و السنة أعم ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبوا لله وَ للرَسُول إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحيِيكُم ﴾ .

و قـال ﷺ « نضر الله وجه إمرئ سمع مقالتى فحفظها و وعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » .

و قال أيضـاً « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله و سنتى » .

و قال « ألا إنى أوتيت القرآن و مثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكبئ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه و ما وجدتم فيـه من حرام فـحرمـوه ، ألا و إن ما حـرم رسـول الله كـمـا حـرم الله .. » .

و قال بعض العلماء :

حدث وشنف بالحديث مسامعى . . . فحديث من أهواه حل مسامعى
لله ما أحلى مكروه الـــذى . . . يحلو و يَعذُبُ فى مذاق السامع
بسماعه نلت الذى أمـــلته . . . و بلغت كل مطالبى و مسامعى

و قد بنت السنة النبوية كيف كان الرسول الأمين يعلم الأمة و يربيهم على نهج سليم و تربية فريدة ...

أتى إليه يوماً فتى من قريش قائلاً له :

يا رسول الله ائتذن لى فى الزنا ، فأقبل القوم عليه و زجروه ، فقالوا : مه مه ، فقال : أدنه ، فدنا منه قريباً ... فقال « أتحبه لأمك ؟ »

قال : لا و الله جعلنى الله فداك ، قال : و لا الناس يحبونه لأمهاتهم قال :

أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا و الله يا رسول الله ، جعلنى الله فداك .

قال : و لا الناس يحبونه لبناتهم ، ثم ذكر له رسول الله أخته و عمته و خالته ، و فى كل ذلك يقول مقالته : لا و الله يا رسول الله جعلنى الله فداك » .

قال : فوضع يده عليه و قال: اللهم اغفر ذنبه و طهر قلبه ، و حصن فرجه .

قال الراوى : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شئ .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : كنت أنا و جار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ، و هى من عوالى المدينة ، و كنا نتناوب النزول على رسول الله .. ينزل يوماً و أنزل يوماً ، فإذا جئته بخير ذلك اليوم من الوحى و غيره .

و إذا نزل فعل مثل ذلك . فكان الواحد منهم يثق فى أخيه و لا يكذبه و لا يدرون ما الكذب .

و هكذا حتى لقى الرسول ربه ، و القرآن قد ثبت فى الصدور و السطور .

أما السنة فقد ثبتت فى الصدور لنهى النبى ﷺ عن كتابتها فى أول الأمر خوفاً من الإلتباس بالقرآن الكريم ، مثل قوله ﷺ « لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن و من كتب شيئاً فليمحه » اللهم إلا القليل بالنسبة لما قاله النبى ﷺ مثل ما حدث لأبى شاة اليمنى ، و قول االرسول ﷺ فى شأنه « اكتبوا لأبى شاة » .

و ما كان من أمر الرجل الأنصارى الذى كان يجلس إلى رسول الله ﷺ فيسمع منه الحديث فيعجبه و لا يحفظه فنشكا ذلك إلى الرسول ... فقال « استعن بيمينك و أومأ بيده إلى الخط » .

و هكذا أخذت السنة تكثر كتابتها خاصة فى أواخر البعثة النبوية و بعد وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام وقعت أحداث جسام فى الأمة الإسلامية مثل حروب الردة ، و مقتل سيدنا عثمان ، و معركة الجمل وصفين ، و ظهور الخوارج و الشيعة ....إلخ .

مما نتج عنه ظهور الوضاعين فى السنة المطهرة .

يقول الدكتور السباعى: كانت سنة أربعين من الهجرة هى الحد الفاصل بين صفاء السنة و خلوصها من الكذب و الوضع ، و بين الإضافة و التزيد فيها و اتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية و الإنقسامات الداخلية بعد أن اتخذ الخلاف بين سيدنا علي و معاويه رضى الله عنهما شكلاً حربياً سالت به دماء و أرهقت منه أرواح و بعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة ، إلى آخر ما قال مبيناً الأمور التى أدت إلى الوضع فى السنة مثل : الخلافات السياسية و الخلافات الفقهية و الكلامية ، و الجهل بالدين مع الرغبة فى الخير ، و التقرب للملوك و الأمراء بما يوافق أهواءهم ، و ليس هذا فحسب بل إن تساهل حكام المسلمين مع الوضاعين فى السنة شجعهم على المضى فى تضليل المسلمين ، و خلطهم الصدق بالكذب تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً ، و تنزه رسوله - ﷺ - عن إفكهم و ضلالاتهم .

أما عن حركة الوضع و أثرها السيئ فى المجتمع الإسلامى و ما يتصل بذلك فليس هنا مجاله ، المهم أن العلماء المخلصين قصدوا و نهضوا للدفاع عن السنة المطهرة و تنقيتها من الشوائب التى لحقت بها مما جعلهم يتشددون فى أخذ الحديث ، و يظهر هذا من قول ابن سيرين :

لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم و يُنظر إلى أهل البدعة فلا يؤخذ حديثهم إلى آخر ما قيل فى ذلك مما هو مبسوط فى موضعه .

هذه السنة النبوية الشريفة التى تحدثنا عنها يجب اتباعها و ذلك بالأدلة القرآنية و الأحاديث النبوية فيما يلى :

ادلة القرآن الكريم على وجوب التزامها :

(أ) قال تعالى ﴿ **وَ مَا آتَاكُم الرَسُول فَخُذُوه وَ مَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهُوا** ﴾ .

(ب) و قال تعالى ﴿ **وَ مَا كَانَ لِمُؤمِن وَ لَا مُؤمِنَة إِذَا قَضَى الَله وَ رَسُولُه أَمرَاً أَن يَكُونَ لَهُم الخِيرَة مِن أَمرِهُم ، وَ مَن يَعصْ الله وَ رَسُولُه فَقَد ضَل ضَلالاً مُبِينَاً** ﴾ .

(جـ) و قال تعالى ﴿ **فَلَا وَ رَبِكَ لَا يُؤمِنُونَ حَتى يُحكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَينَهُم ثُم لَا يَجِدُوا فِى أَنفُسهم حَرَجاَ مِمَا قَضيتْ وَ يُسَلِمُوا تَسلِيما** ﴾ .

(د) و قال تعالى ﴿ **يَا أَيُهَا الَذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرَسُولَ وَأُوْلِي**

الأمرِ منكُمْ فإن تنازَعْتُمْ في شيْءٍ فرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إن كُنتُمْ تؤْمِنُونَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذلكَ خيْرٌ وأحْسَنُ تأْوِيلاً﴾ ..... إلخ .

و فضلاً عن أدلة القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة على وجوب العمل بالسنة ، فهناك الكثير من أدلة الفقهاء الدالة على ذلك أيضاً .

و من أمثلة ذلك : ما ذكره الإمام الشافعي في كتابه « الرسالة » .

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : قال تبارك و تعالى **﴿إنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾** .

و قال **﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ﴾** .

و قال **﴿وَ أَتِمُّوا الحَجَ وَ العُمرَةَ لله ﴾** .

ثم بين على لسان رسوله ﷺ عدد ما فرض من الصلوات و مواقيتها ، و سننها و عدد ركعاتها و الزكاة و مواقيتها و كيفية غسل الحج و العمرة و حيث يزول هذا و يثبت و تختلف سننه و تتفق و لهذه أشياء كثيرة فى القرآن و السنة .

و قد كان رسول الله ﷺ يبين كيفية الصلاة بقوله و عمله ، كان يبين أوقاتها و أركانها و عدد ركعاتها و افتتاحها و ترتيب حركتها بعد الإفتتاح ، و يقول ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

و يبين أيضاً ﷺ مناسك الحج : أركانه و واجباته و سننه و يقول « خذوا عنى مناسككم » .

إلى غير ذلك من الأمور التى تحتاج إلى بيان من النبى ﷺ .

(جـ) السيرة النبوية الشريفة . و أهميتها فى إعداد الداعية علمياً:

من مصادر الخطيب التي يجب أن يرجع إليها : السيرة النبوية و منها يعرف كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، و يأخذ الكثير من العبر و العظات فى كثير من نواحى الحياة ، و من الكتب النافعة فى ذلك :

سيرة ابن هشام ، و الطبقات الكبرى لابن سعد ، و دلائل النبوة للبيهقى و الشمائل المحمدية للترمزى و محمد رسول الله للشيخ صادق عرجون ، و فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ، و مثله لمحمد سعيد اليوطبى ، و المنهج الحركى للسيرة النبوية لمنير محمد الغضبان .

(د) الدراسات الفقهية و أهميتها فى إعداد الداعية علمياً:

من المصادر التى يحتاج إليها الخطيب « الفقه » سواء كان فى جانب العبادات أو المعاملات .. و يستحسن إذا كان سيؤدى رسالته فى منطقة تلتزم بمذهب معين كالمذهب الحنفى – مثلاً – فيجب عليه أن يدرس كتاباً فى هذا المذهب و هكذا .

أما إذا كان يعمل فى منطقة لا تلتزم بمذهب معين ، فعليه أن يدرس – مثلاً – كتاباً مثل : فقه السنة للشيخ السيد سابق ، أو بداية المجتهد لابن رشد ... و إن كان فى منطقة خليط ، فعليه أن يدرس كتاب « الفقه على المذاهب الأربعة » للشيخ الجزيرى .

(هـ) دراسة اللغة العربية و آدابها و اهميتها فى إعداد الداعية الخطيب علمياً:

من مصادر الخطيب أن يعنى بدراسة اللغة العربية و آدابها ذلك لأن الخطيب الذى لا يحس النطق ، يكثر من الخطأ فى اللغة العربية . ينصب الفاعل و يرفع المفعول و هكذا ...

فإن موقفه من الناس خاصة أهل الثقافة - يكون سيئاً .

و علاج ذلك : دراسة بعض كتب النحو و الصرف ، و البلاغة و الآدب مثل كتاب : ابن عقيل ، و شذور الذهب و قطر الندى وبل الصدى ، و المنهاج لحامد عونى فى البلاغة ، و العقد الفريد لابن عبد ربه ، و الرسالة للزيات مع ادمان القرزءة ، و التدريب على الكلام .. .

(و) العلوم الإنسانية مثل : المنطق و الفلسفة و علم الإجتماع و علم النفس و الإعلام و وسائله ، و آيات الله الكونية و الإنسانية .

و يجب أن تكون لديه فكرة و لو بسيطة عن هذه الموضوعات حتى يستطيع الرد على أعداء الإسلام و رسوله .

و الكتب فى هذا المجال كثيرة يضيق المقام عن ذكرها مثل :

الإسلام فى عصر العلم للدكتور / محمد أحمد الغمراوى و تفسير الرازى و تفسير طنطاوى جوهرى ، و واقعنا المعاصر للأستاذ / محمد قطب ...إلخ .

(ز) الإسلام و التيارات المعاصرة :

من المصادر التى لا يستغنى عنها الخطيب و نمرنه عليها و نشغله بدراستها على فترات من الزمان ما يتصل بموضوع (الإسلام و التيارات المعاصرة) و هذا موضوع من أخطر الموضوعات لأنه يتصل بالعقيدة الأساسية للإنسان فإن كانت صلبة نجح فى دعوته و إلا أفسد أكثر مما يصلح .

و التيارات التى يجب أن يتعرف عليها كثيرة ، مثل :

اليهودية و النصرانية و الشيوعية و الوجودية و البوذية و الزرادشتية و الماسونية إلى أخر هذه التيارات التى أصبحت الآن تملأ الساحة الإسلامية .

و المؤلفات التى كتبت بأقلام علماء الإسلام الأفذاذ فى هذا المجال كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

خامساً : إعداده روحياً و اخلاقياً :

و من الأسس التى لابد أن يربى عليها « الخطيب الداعية » إعداده من الناحية الروحية و الأخلاقية .

ذلك لأن الإنسان مهما كان قوياً فى جسمه و عقله و علمه و ثقافته لكنه فقير من ناحية روحه ، و أخلاقه سرعان ما ينحدرز .

و إعداد الخطيب ... من هذه الناحية يتلخص فيما يلى :

(1) أن يكون ذاكراً لله دائماً و أبداً .

يقول الله تعالى ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ ﴿ **إذكُرُونى أَذكُركُمْ وَ اشكُروا لِى وَ لَا تَكْفُرُون** ﴾ ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِى خَلَقَ فَسَوى** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ .

و عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، قال : يا رسول الله : من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟

قال : إن الأبواب الخير كثيرة .

التسبيح و التكبير و التهليل صدقة .

و تميط الأذى عن الطريق صدقة .

و تسمع الأصم و تهدى الأعمى .

و تدل المستدل على حاجته .

و تسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث .

و تحمل بشدة ساعديك مع الضعيف .

فهذا كله صدقة منك على نفسك .

2 - أن يكون حسن الخلق :

قال تعالى لرسوله و مصطفاه ﴿ وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ ﴿ ادفَع بِالَّتِى هِىَ أَحسَن فَإِذَا الَّذِى بَينَكَ وَ بَينَه عَدَاوة كَأَنَه وَلِى حَمِيم ﴾ .

و قال ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً » .

3 - أن يصبر على أداء رسالته :

قال تعالى ﴿ وَ اصبِر عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِن عَزمِ الأُمُور ﴾ .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم ضربه قومه فأدموه و هو يمسح الدم عن وجهه و يقول (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) متفق عليه .

4 - أن يكون حييا فى حياته كما قال رسول الله ﷺ :

(الحياء و الإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) .

لا يمنع المسلم أن يقول حقاً أو ياتمر بما أمر الله و ينتهى عما نهى الله عنه .

و من ذلك : أن أسامة بن يزيد – حب رسول الله و ابن حبه – جاء إلى النبى ﷺ يشفع فى المرأة المخزومية فلم يمنع الحياء رسول الله ﷺ أن يقول لأسامة فى غضب :

« أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ و الله لو سرقت فلانة لقطعت يدها » .

5 - أن يتصف بخلق الرحمة :

قال تعالى ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ سورة التوبة .

و قال ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم و معاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى » رواه مسلم .

6 - أن يتمتع بخلق الإيثار و حب الخير :

قال تعالى ﴿ **وَ يُؤْثِرُونَ فِى أَنفُسِهِم وَ لَو كَانَ بِهِم خَاصَاصَة وَ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَئِكَ هُم الْمُفْلِحُون** ﴾ سورة الحشر .

و هذا هو سعد بن الربيع الصحابى الأنصارى يطبق هذا الإيثار على نفسه ، فيعرض على أخيه عبد الرحمن بن عوف الصحابى المهاجرى زوجتيه ، و ماله ليأخذ نصف المال ، و يختار إحدى الزوجتين فيرفض عبد الرحمن بن عوف داعياً له و قال : دلنى على سوق المدينة ..

7 - أن يتوكل على الله في جميع أموره ...

قال تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ سورة المائدة .

و قال ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً » رواه الترمذى و حسنه .

8 - أن يكون متواضعا لا متكبراً على الناس :

قال تعالى ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الشعراء .

و قال ﷺ « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد و لا يبغى أحد على أحد » رواه مسلم .

9 - أن يتصف بصفة السخاء و الكرم :

قال تعالى ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة .

و قال ﷺ « اتقوا النار و لو بشق تمرة » رواه البخارى .

10 - أن يكون محسنا في قوله و عمله :

قال تعالى ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ سورة البقرة .

و قال ﷺ « إن الله كتب الإحسان على كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة و إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة و ليحد أحدكم شفرته و ليرح ذبيحته » رواه مسلم .

11 - أن يحرص على خلق العدل سواء كان بالمعنى العام أو الخاص :

قال تعالى ﴿ **وَ اقسطوا إنَ الله يُحب المُقسطين** ﴾ سورة الممتحنة .

و قــال ﷺ « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، و ساب نشأ فى عبادة ربه ، و رجل قلبهْ معلق بالمساجد ، و رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه و تفرقا عليه ، و رجلا دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال : إنى أخاف الله ، و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله مــا تنفق يمينه ، و رجل ذكـر الله خــاليــاً فـفــاضت عــيناه من الدمع » رواه البخارى .

12 - أن يتخلق بخلق الحلم :

قــال تعــالى ﴿ **وَ لَو كُنتَ فَظاً غَلِيظ القَلب لَنفَضُوا مِن حَولِكْ** ﴾ ســورة آل عمران .

و لقد حدث أن أعرابياً بال فى المسجد « فقال الناس : ليقعوا فيه ، فقال النبى ﷺ: دعوة ، و اريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين » رواه البخارى .

13 - أن يكون مخلصاً فى قوله و عمله :

قــال تعــالى ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ** ﴾ سورة البينة : ٥ .

و قــال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل إمرئ ما نوى فمن كانت

هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » متفق عليه .

و هناك الكثير و الكثير من الصفات الروحية و الأخلاقية التى يجب على الخطيب الداعية أن يتحلى بها و يعد على أساسها مثل :

التوبة و الصدق و التعاون على البر و التقوى ، و ستر العورات و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و الإصلاح بين الناس .. .

و التى لا تخرج بمشيئة الله عز و جل عما ذكرناه ، و يكفى لكل هذا و غيره ما قاله الحق تبارك و تعالى فى سورة الأعراف ﴿ **خُذ الْعَفْو وَ أمر بالعرف وَ أَعرِض عَن الجَاهلِين** ﴾ .

14 - أن يكون رابط الجاش متمكنا من أداء رسالته مهما اعترض عليه المعترضون و قاطعه الجمهور سواء كان هذا بحق أو بباطل :

خطب النبى ﷺ يوماً فقال :

« إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل فقال : أكل عام يا رسول الله ؟

و القصة فى كتب التفسير عند قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسأَلُوا عَن أشيَاء إِن تُبدَ لَكُم تَسؤكُم** ﴾ .

و هناك الكثير من المواقف الخطابية التى حدثت فيها المقاطعة رويت فى كتب التاريخ الإسلامى و الأدب العربى .

ملاحظات يجب أن ننبه عليها :

١ - فى إعدادنا للخطيب الداعية ليس معناه أن نربى جسمه حتى يقوى ثم بعد ذلك تقوى عقله و هكذا ، و لكن تكون التربية و يكون الإعداد من جميع هذه النواحى المتعددة حتى نصل بذلك إلى إعداد الخطيب النموذجى الذى ينجح بتوفيق الله تعالى - فى تبليغ رسالته .

٢ - قد يعترى الخطيب بعض الأشياء التى تعوق عليه أمره ، و هى غالباً ما تكون خارجة عن إرادته و ذلك كالعى و الحصر .. و هو :

العجز عن الإتيان بالخطبة كما ينبغى أو يضيق صدره بالكلام ، و أيضاً : الرعشة ، و الرعدة ، و ضيق مخارج الصوت و دقته .

و الخطيب حينما يصاب بشئ من ذلك عليه أن يتصرف فى مواقفه حتى لا يكون عرضة للسخرية و الضحك عليه من الجمهور .

و سنذكر فيما يلى بعض المواقف من مشاهير الخطباء و كيف تصرفوا أمامها مما جعلهم عظماء فى أعين الناس .

(١) عبد الله بن عامر :

هو عبد الله بن عامر بن كريز ، و ابن خال عثمان بن عفان ، أحضر إلى رسول الله ﷺ وليداً ، فقال : هذا شبيهنا و عوذه فابتلع ريق رسول الله ﷺ كان عبد الله شجاعاً ميموناً جواداً ، و لاه عثمان بن هفان البصرة عام ٢٩ هـ ، و كافح حتى مات عام ٥٩ هـ ، وقف يخطب يوم عيد الضحية

، فارتج عليه فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال : لا أجمع عليكم عيا و لؤما ، من أخذ شاة من السوق فـّ له و ثمنها على .

و بهذه الطريقة استطاع هذا الخطيب أن يفلت من الحرج .

(ب) عثمان بن عفان :

حينما تولى ثالث الخلفاء الراشدين أمر الخلافة و بدأ يخطب إرتج عليه فقال « أيها الناس إن أول كل مركب صعب ، وَ إن أعش تأتكم الخطب على وجهها . و سيجعل الله بعد عسراً يسرا إن شاء الله » .

من هذه الكلمات القليلة نعلم منها كيف كان اعتذار الخليفة و خروجه من المأزق الذى وضع فيه ، و بالطبع كان يخطب قبل ذلك و لكن شتان ما بين الخطابة قبل الخلافة و بعدها .

(جـ) مقاطعة الخطيب :

ذكرنا فيما سبق أن يكون الخطيب ثابتاً فى خطابته متمكناً من أدائه ، و الأمثلة كثيرة نذكر منها :

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب و إذا برجل يعترض عليه و هو فوق المنبر ، لأنه كان يلبس قميصين و قد أعطى كلا من الآخرين قميصاً واحداً ، فلما تبين له أن ابنه عبد الله أعطاه قميصه ، قال المعترض الآن قل نسمع .

و خاطر - أى راهن -- رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص و هو فى

الخطبه فيسأله عن أمه ، فقام إليه و قال : أيها الأمير من أمك ؟

ففطن عمرو إلى أنها مراهنة ، فقال له : هى النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، اشتراها عبد الله بن جدعان فوهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه .

و بهذه الطريقة الصراحة استطاع عمرو بن العاص أن يفلت من الحرج الذى سببه له هذا المعترض .

إلى آخر هذا الجانب الكبير الذى يضيق المقام عن ذكره .

٣ - ما يطلب من الخطيب الداعية جملة :

١ - أن يكون عالماً بما يقول فاهماً له على الوجه الصحيح ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح ، قال تعالى ﴿ **وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُم الكَذِب هَذَا حَلَال وَ هَذَا حَرَام لِتَفتَرُوا عَلَى اللَّ الكَذِب إنَ الَذِن يَفتَرُونَ عَلى اَللّه لَا يَفلِحُون ، مَتَاع قَلِيل وَ لَهُم عَذَاب أَلِيم** ﴾ .

و قال الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، و العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح .

٢ - أن يكون عاملاً بعلمه : و هذه ناحية هامة لا ينبغى للخطيب الداعية أن يغفل عنها ، فكم من علماء جهابذة فى العلم لا ينتفع - غالباً - بحديثهم لأنهم فى ناحية و علمهم و حديثهم فى ناحية أخرى مما يكون عقبة فى سبيل الإصلاح .

و هيهات أن ينتفع بعلمهم ، فإنهم قد فقدوا الرشد فى أنفسهم ، فكيف يرشدون غيرهم .

قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُون ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون** ﴾ .

و عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟

فقال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » .

و قال الحسن البصرى : « **الراعظ من وعظ الناس بعلمه لا بقوله** »

و رحم الله من قال :

لا تنه عن خلق و تأتى مثله .. عار عليك إذا فعلت عظيم

أبدأ بنفسك فإنهها عن غيها .. فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول و يشقى .. بالقول منك و ينفع التعليم

٣ - أن يكون خبيراً بما يدعو إليه ، لأن الدعوة إلى الله تعالى تعليم و تربية ، لابد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية و الأحوال النفسية و الجاهل بهذه الطرق يخفق أكثر فى مهمته ، و يضر من حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع .

معنى هذا : أن الداعية يسير فى دعوته مسترشداً بهذه الآية االكريمة ﴿ إدعُ إلى سبيل ربكَ بالحكمَة وَ الموعظَة الحسَنة وَ جَادِلهم بالتى هىَ أحسَنْ ﴾ .

٤ - أن يكون الداعية عفيفاً يائماً مما عند الناس . بهذا يكون سيداً فى قومه محبوباً لديهم .

أما إذا تطلع إلى دنياهم أدى هذا إلى تحقيره و سقوطه فى نظرهم .

فعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصنى و أوجز فقال : ى عليك باليأس مما فى أيدِى الناس فإنه الغنى ، و إياك و الطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك و أنت مودع و إياك و ما يعتذر منه » .

و قال الحسن البصرى : « لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع فى دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به و كرهوا حديثه و أبغضوه » .

و قال أعرابى لأهل البصرة : من سيدكم ؟

قالوا : الحسن . قال : بم سادكم ؟

قالوا : احتاج الناس إلى علمه و استغنى عن دينارهم .

فقال ما أحسن هذا .

٥ - أن يكون قوياً فى بيانه . فصيحاً فى لسانه :

و لذلك قال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام ﴿ وَ احلل عُقدة مِن لسَانى ، يَفقَهوُا قَولِى ﴾ و قال تعالى : ﴿ وَ أخِى هَارُون هُوَ أفصَحْ مِنى لِسَاناً فَأَرسِلَه مَعِى رِدءاً يَصدِقنى ﴾ .

٦ - أن يكون حليماً واسع الصدر :

قال تعالى لإمام الداعين إلى الله ﴿ وَلَو كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّوا مِن حَوْلِكَ ﴾ .

٧ - أن يكون الداعية شجاعاً . يقول الحق و لو على نفسه . فما بالك إذا كان على غ ,ره مهما كانت قيمة هذا الغير .

قـــ ال ﷺ « إذا رأيت امتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » .

عن بى ذر الغفارى رضي الله عنه قال :

« أو صانى خليلى بخصال من الخير : أوصانى أن لا أخاف ى الحق لومة لائم ، و أوصانى أن أقول الحق و إن كان مراً » .

٨ - ان يكون واثقاً بالله تعالى فيما وعد به عباده المخلصين الصادقين ﴿ يَا أَيُّ ا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقدَامَكم ﴾ .

٩ - ، أن يكون متواضعاً بعيداً عن العجب .

قـــ ل ﷺ « ما نقصت صدقة من مال و ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، و ما واضع أحداً لله إلا رفعه الله .

١٠ - و أن يكون وقوراً . كبير الهمة . صابراً . ورعاً بعيداً عن الشبهات مخلص في دعوته لله تعالى . عالماً بأحوال من يدعوهم إليه عز و جل .

إلى آخر هذه الصفات المتعددة التى ترجع كلها إلى ما ذكرناه .

أصول الخطابة و مقوماتها

قلنا : إن الخطابة من فنون الكلام يقصد به التأثير فى الجمهور عن طريق السمع و البصر معاً .

١ – فمما يدخل أثره عن طريق السمع هو :

أ – الأسلوب . ب – الإلقاء . جـ – الصوت .

٢ – و مما يدخل أثره عن طريق البصر هو :

أ – الوقفة و الهيئة . ب – الحركة و الملامح .

و تلك هى مقومات هذا الفن و ملاكه .

و نحن الآن على موعد لنتكلم عن كل واحد من هذه المقومات :

١ - الأسلوب :

يقولون : إن من البيان لسحراً ، و الخطيب الحصيف يمكنه أن يسحر الأفئدة بقوة فكرته و لحسن القائه و عنوبة كلامه و سهولة عرضه و وضوح فكرته .

و الخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الأذان ، و للأذان ذوق فى الجمال لابد من مراعاته و مرضاته ، أى أن الخطابة فى الإتصال بالقلب عن طريق الأذان ، فالخطيب الحاذق هو الذى يصوغ خطبته فى أسلوب تتخير له الألفاظ المتسقة و الجمل المتراصة و الفقرات المترابطة و الأساليب السهلة .

و الأفتتان فى تنويع الأسلوب و القصد فيه لذلك يحسن أن يكون الخطيب ماماً بثروة كبيرة من آداب اللغة و مروياتها و أساليبها و ألفاظها .

و على الخطيب أن يتجنب التكرار إذ هو عيب مخل فى الخطبة ، و الكلام لا يقاس بطوله ، بل بمقدار فائدته ، و لقد كان ﷺ أقل الناس كلاماً .

و كانت خطبه مختصرة موجزة ، و المروى من خطبه صلوات الله و سلامه عليه قليل و مختصر ، و لكن فائدته عظيمة .

قال النووى : يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبنية من غير تمطيط و لا تقصير ، و لا تكون ألفاظاً ملفقه لأنها لا تقع ى النفوس ، موقعاً كاملاً ، و لا تكون وحشية نافرة فإنها لا تحصل المقصود منها بل يختار ألفاظاً سهلة جزلة مفهمة ، و قال ابن القيم ، ، كذلك كانت خطبه ﷺ إنما هى تقرير لأصول الإيمان بالله لأوليائه و أهل طاعته و ما أعد لأعدائه و أهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً و توحيداً و معرفة بالله و آلائه ، لا كخطب غيره التى تتناول أموراً مشتركة بين الخلائق أى ضعيفة الصلة بالدين فاقدة لتوجيهاته الواجهة .

كما سنعرف مزيداً من التفصيل فى هذا الموضوع عند الكلام على هدى الرسول ﷺ فى خطبته .

و على الخطيب أن يكون لسنا له بصر بآداب اللغة و طرائق المرويات ، ذواقة بالشعر و النثر ، حتى يمكنه ذلك من التعبير عما فى ضميره ، و نقل

ما فى نفسه إلى نفوس الآخرين بعبارة رقيقة و أداء مستحب .

و نضع أمام الخطيب هذه الأمور لكى يواعيها فى تخير الأسلوب :

١ - توخى الأساليب السهلة .

٢ - الافتتان فى تنوع الأسلوب .

٣ - تخير الألفاظ .

٤ - الإعتماد على العاطفة و الشعور . بمعنى أن يكون الخطيب يقظ القلب جياش دالمشاعر صادق اللهجّة ، فعن جابر قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه و علا صوته و اشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم و مساكم أى أتاكم العدو وقت الصباح أو المساء .

و هكذا .. فإنه لا يؤثر فى الناس إلا المتأثر ، إذا أن فاقد الشئ لا يعطيه ، و كلما كان الخطيب مخلصاً فى قوله معتقداً صدق كلامه كلما اتخذ سبيله إلى القلوب ، فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع فى القلب ، و إذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان ، و كما أن الماء الذى علا صوته ينساب فى المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية هو الذى يتخذ من قمة الشعور ألفاظاً و العواطف عبارات و أساليب تلهب الحس و توقظ النفس و تثير الحمية .

٢ - الإلقاء :

لحسن الإلقاء أثر عظيم فى نجاح الخطبلة ، و لذلك فهو من أجل ما ينبغى إهتمام الخطيب به ، فقد تسمع خطبتين ذاتى موضوع واحد ، إلا أنه

يجذب أحدهما انتباهك و يثير إعجابك بحسن إلقائه و جمال عرضه ، و قد يكون أسلوب الخطبة نازلاً عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه و عذوبة إلقائه فيثير السامع و يلهبها بجمال إلقائه عن ضعف إنشائه .

و الإلقاء الحسن يتمثل فى الوضوح و الطلاقة ، تمثيل المعانى و العواطف و ذلك بتغيير اللهجة و تنويع الصوت و فيهدأ الخطيب و يبطئ و يسرع ، و يغضب و يعجب ، و يسأل و يجيب ، و كل ذلك فى استقامة لغة و سلامة منطق .

و يبعد عن اللكنة و ما يتبعه من كثرة اللجلجة و التلعثم و الإلتجاء إلى جمل الإستعانة كتكرير أيها السادة - مثلاً -- .

و هكذا لا يبلغ الخطيب غايته إلا إذا كان حسن الإلقاء جميل الأداء قوى الروح ليواجه السامعين بالحق الواضح و الذكر المبين .

٣ - الصوت :

من الصفات الحسية اللازمة للخطيب الصوت الجهورى و العناية برفعه و خفضه فى المواضع المختلفة ، إذ هو طريق الفكرة إلى الأذان فلابد أن يكون جيداً حلو النغمة صافى الرنين خالص النبرات . و يجب على الخطيب أن يعنى به و يقف على قوة إرتفاعه و مدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضل و يتهدج ، و يحسن مع ذلك أن يبدأ به فى إنخفاض ، و تأن ثم

يرفعه رويداً رويداً حتى يبلغ به أقصى قوته ثم يردده بين الصعود و الهبوط مغيراً فى ميزانه و نغماته و وقفاته تبعاً للمعنى الذى يؤديه محاذراً ألا يخرج به عن مستواه .

٤ - الوقفة و الهيئة :

أقصد بالأولى : أن يكون الخطيب ثابت الجنان شجاع القلب لا يحمل شيئاً من الجبن و الخور و لا يهاب أحداً إلا الله ، متمالك الآعصاب ، هادئ الانفاس مستقيم الصوت .

و أقصد بالثانية : وضاءة الطلعة و حسن الهندام و جمال البزة ، و إن كانت هذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب و حسن الإلقاء .

إلا أن هذه أمور تجب العناية بها . ذلك أن الخطيب مطمع أنظار الناس و محل تقديرهم .

فإذا كان حسن المنظر جميل الهندام كان موضع تقدير و محل احترام ، و إن كان على العكس من ذلك فإنه قد يلقى اعراضاً و نفوراً و قد قيل :

إن معاوية لما رأى النخار مرتدياً عباءة رثة أنكر مكانه و هيأته ، حتى اضطر النخار إلى أن يقول : إن العباءة لا تكلمك و لكن يكلمك من فيها .

فالواجب على الخطيب أن يكون وجيها كى يوقره الكبير و يهابه الصغير و يأخذ كلامه الطريق إلى القلوب .

و المقصود بالوجاهة ألا يحتقر العالم نفسه فى مظهره أو فى سيرته بل يتحفظ و يجعل هيأته مقبولة بين الناس .

قال رجل لعبد الله بن عمر « ما ألبس ؟ قال : ألبس ما لا يعيبك عليه العلماء و لا يزدريك فيه السفهاء » أى أن ملابس الخطيب يجب أن تكون بحيث لا يحتقره فيها الرعاع و لا يظن غيرهم أنه يتكلف فى تجمله و تزينه . و من كلام الامام عبد الرحمن بن الجوزى « على أهل العلم أن يظهروا مروآتهم فى ثيابهم إكراماً للعلم و إجلالاً له » و يقول الإمام مالك « التواضع فى التقى والدين لا فى اللباس » .

٥ - الحركة و الملامح :

و كلاهما مساعداً و يقصد بهما الإشارات التى يمكن أن تشارك مع الكلمات و النبرات كإشارات اليد التى تساعد على تثبيت الكلمات فى النفس ، لأن الكلام إذا كان طريقه الأذن فالإشارة تشرك العين مع الأذن فى الإحاطة بالمعنى و تصوره .

و لذلك كانت الحركات عنصراً من عناصر العمل الروائى ، و هى كذلك جزءاً من أجزاء الفن الخطابى لنفعها و إفادتها .

فباستعمال إشارة اليد تؤكد المعنى و أسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير و الخطيب يستطيع أن يعبر بملامح وجهه و تغض الجبين عن اللذة و الألم و الرضا و السخط و النفور و الميل و السرور و الحزن ، و بالعيون عن العواطف المختلفة فيرفعها إلى السماء فى الألم الشديد و الدعاء و يخفضها إلى الأرض فى التفكير و الحيرة و الخشوع و الحياء أو يفتحها

عند الدهش و الإعجاب و يطبقها عند التواضع و السكينة ...و هكذا .

يروى التاريخ القديم عن مصعب بن الزبير أنه باستعمال الإشارة اليدوية أثناء إلقائه لبعض آيات القرآن الكريم رسم فى نفوس السامعين كل الذكريات الدينية التى تشير إليها هذه الآيات فيجد السامع نفسه فى موكب من الذكريات التى تكاد الإشارة تجسدها تجسيداً .

إن مصعب بن الزبير قدم العراق فقال ﴿ **بسم الله الرَحمن الرَحيم ، طسم ، تلكَ آيَات الكتَاب المُبين ، نَتلو علَيكَ من نبأ موسى و فرعُون بالحَق لقوم يُؤمنُون ، إنَ فرعون عَلا فى الأَرض و جَعَل أهلهَا شيعاً يَستَضعف طَائفَة منهم يَذبح أبنَاءهم و يَستَحى نسَاءَهم إنَه كَان من المُفسدين** ﴾ .

و أشار بيده إلى الشام حيث نشأ موسى عليه السلام و إلى حيث هاجر بقومه بعدما كان من أمر فرعون ، فكأنه أشار إلى مسرح تلك الحوادث فارتسمت فى أذهان السامعين بعد أن مرت عليها مئات الأجيال .

ثم استفرد مصعب بن الزبير يقول ..

« و نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين ، و أشار بيده نحو الحجاره ثم قرأ ﴿ **و نُمكن لَهُم فى الأَرض و نَرى فرعون و هَامَان و جُنودهَما منهم مَا كَانُوا يَحذرُون** ﴾ .

شروط نجاح الإشارة :

الخطيب الموفق هو الذى يضع الإشارة بالحركة فى محلها و مجالها لذلك

فلا صابتها شروط ، نذكر منها ما يلى :

١ أن يقتصد فى استعمالها قدر الإمكان ، فلا يبالغ و لا يتكلف و لا يكذب .

٢ - أن تتفق مع المعنى فتبطئ ، و تهدأ و تسرع و تثور تبعاً له .

٣ - ألا تسبق الكلام و ألا تأتى بعده .

٤ - أن يكون حكيماً فى استعمالها ، مناسبة لما ينطبق به لكى تجئ الإشارة جزءاً متمماً للكلام موضحة له ، و حتى يكون فى استعمالها دقيقاً و موفقاً .